تعلّم الإسلام في خمسة أيام

بقلم نبيل فياض

نبيل فياض، 14 يناير 2004

حين كنّا صغاراً، وكانت الثقافة، لا الدين وشراشيبه كما هي الحال اليوم، من أساسيّات التربيّة التي كنّا نتلقّاها في المنزل والمدرسة التبشيرية الدانماركيّة، كان البحث عن أسرع طريق لتعلّم اللغات أحد أهدافنا البريئة الطائشة. لهذا كنّا نركض في الصيف إلى مركز حمص، مدينتي الملوّثة غير الجميلة، كي نشتري من أمام السرايا كتباً مثل: تعلم التركية في خمسة أيام؛ أو، تعلّم البرتغاليّة في سبعة أيام؛ أو، تعلّم الألمانيّة في تسعة أيام؛ وذلك بحسب أهمية اللغة وقوّتها. وهكذا، كنّا نرطن بألفاظ قليلة مثل، "شوك غوزال أو بوّا جيا أو في هايسن زي"؛ وكنا، لطيشنا البريء، نعتقد أنّنا بذلك ختمنا علوم اللغات وصار يمكن أن نعمل مترجمين محلفين أو باحثين لغويين أو ما شابه..

كانت أيام!

وكبرنا؛ وعرفنا أن أبسط لغات العالم لا يمكن تعلّمها بهذه الطريقة. فاللغة، حامل ثقافة الشعب وروحه، أعقد من أن يتعلّمها المرء في عشرة أيام، أو عشرة شهور، وربما عشر سنوات.

بالمقابل، رغم أن بيتنا لم يكن الأزهر الشريف، إلاّ أن خالتي المغرقة في تدينها، كانت تلحّ بإزعاج أن المسلم بحاجة إلى ثلاثة أعمار فوق عمره كي يتعلّم أصول دينه الحنيف. بل إنها أرسخت في لا وعينا أن معرفة الفروق بين المذاهب يمكن أن تحتاج إلى عشر سنوات من الدراسة المتواصلة: المذاهب في نظرها كانت تلك الأربعة التي تتبع لأهل السنّة والجماعة . الباقون كانوا عندها مجرّد كفّار ذاهبين إلى الجحيم بلا إذن ولا دستور. ولأن خالتي كانت متعلّمة وأكبر منّا بكثير، كنّا نصدّقها.

كانت أيام!

وكبرنا؛ وعرفنا أن هذه البنى المتوارثة المسمّاة بالإسلام لا تحتاج لأكثر من عشر ساعات من نصف جهد عقلي كي يعرف الإنسان عنها كلّ شيء. كان طيش أطفال حين صدّقنا خالتي؛ وكان غباء محزناً حين أخذنا كلامها على محمل الجدّ زمناً لا بأس به! الإسلام يمكن اختصاره في مقولات خمس لا حاجة بالمرء كي يعرف غيرها.

إنّ أكثر ما يدفعنا إلى تقديم هذا المقالات التي تحمل عنوان "تعلّم الإسلام في خمسة أيام" هو رؤيتنا لبعض الغربيين تتدافع إليهم محطّات التلفزيون النفطيّة؛ يعلنون بسذاجة أغبياء الغرب المزعجة: "نهن [نحن] وجدنا المهبة [المحبة] وهكوك [وحقوق] الإنسان في الإسلام". وتكبر الكارثة التي تجتاح الأخضر واليابس من تلك الشاشات حين تخرج علينا امرأة محجّبة بيضاء زرقاء العينين لتخبرنا أن الإسلام هو الديانة الوحيدة في هذا العالم التي تصون كرامة النساء: [المرأة شر كلّها؛ المرأة خلقت من ضلع أعوج.. فاستمتع بها على اعوجاجها؛ لا يقطع الصلاة إلا الكلب والحمار والمرأة؛ الشؤم في الدار والمرأة والدابّة؛ لا تسأل المرأة طلاق أختها؛ لو كنت آمر أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها]؛ لكن الكارثة تهول لتصبح بحجم انقراض الديناصورات حين تتحفنا زنجية محجّبة بحجم الفيل الأفريقي حول آرائها عن الإسلام الذي لا يوجد فيه أي نوع من التمييز العنصري؛ بعكس الديانات الأخرى: وكأن هذه الخرتيتة السوداء بولتمان أو هانس كونغ أو شلايرماخر؛ [يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا

العذاب بما كنتم تكفرون (106:3)؛ إذا بشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم (58:16)؛ يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة (60:39)].

الإسلام ليس الديانة البوذية العظيمة كي نتعامل معه بجدّية: إنه إعادة سكب، باللغة العربية، لمقاطع مسروقة بطيش نزق من هالاخوت اليهود وهاغادوتهم، ولا أعتقد أن كلّ ما خلّف اليهود من هالاخا وهاغادا يستحق من الإنسان أن يصرف فيه أي نوع من الطاقات الذهنيّة! من هنا، فهذه الدروس الخمسة كافية تماماً لمن يريد أن يفهم الإسلام على حقيقته، لا كما يقدّمه حاخام النفاق المثقف، محمد عمارة، عبر محطّات بدائيي النفط.

اليوم الأوّل:

الدرس الأوّل: الإرهاب!!!

الإله في كل الأديان التي تؤمن بوجوده أقوى من البشر: هو الذي يتحكّم بهم، يخلقهم، يميتهم؛ لكن تصوّر هذا الإله يختلف بحسب الظروف الموضوعيّة التي جاء من خلالها هذا الإله إلى الوجود.

الشيء الأساس الذي شغل بال محمد، وهو يؤسّس لديانته الجديدة، الآخر المخالف. ومع أن ما من أحد يمتلك أدنى دليل على صحّة مفاهيمه الما ورائية غير الظنون، فقد كان هاجسه، منذ البداية الأولى، إزالة كل مفاهيم الألوهة الأخرى، باستثناء المفهوم الذي تملّكه: الله! ولمّا حاول مرّة استرضاء المكيّين الأرستقراطيين عبر مناشدة آلهتهم الخاصّة غير الله، يبدو أنه أحسّ وقتها بأن ذلك قد يقوده إلى تنازلات أخرى فاعتبر أن الآيات التي نطق بها في مدح اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى كانت بوحي الشيطان: من هنا جاء مفهوم الآيات الشيطانيّة. . مع ذلك، فالسؤال الذي يطرح نفسه استدراكاً بقوّة هنا: ما حدود قدرات هذا الشيطان الخارقة حتى يكون باستطاعته أن يمرّر على لسان أوّل خلق الله وخاتم رسل الله ألفاظاً شركيّة، ضمن ما يفترض أنه كلام إلهي؟

كان محمد يريد، باستخدام مدروس لمفهوم الله، أن يوحّد العرب تحت راياته، وأن يكرّس من ذاته زعيماً أوحداً لهؤلاء العرب، فهو رسول الله وممثله على الأرض. كان محمد يرغب بسلطوية مطلقة، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مكاسب ماديّة ومعنوية، تحت رايات التوحيد التي رفعها عالياً؛ لذلك كان لا بدّ من إنهاء أدنى وجود لأي إله آخر: لا لشيء، إلاّ لأن أي إله آخر قد يشكّل ممثله على الأرض، إن وجد، تهديداً قويّاً لسلطة محمد الدنيويّة. وهكذا، فقد قبل بإسلاميّة كاذبة لمجموعة من المكيّين غير المؤمنين به، كأبي سفيان مثلاً، فقط كي يتأكّد أنه لن يسمع علناً باسم إله آخر في مكّة غير الذي اختاره هو.

لم يكن محمد يرغب بأي منافس له لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر على السلطة. السلطة التي نقلته من عالم الفقر والعوز والاضطرار للزواج من امرأة تكبره بخمسة عشر عاماً لأنها غنيّة إلى حاكم دنيوي مفرط في غناه يتزوج صباح مساء من أجمل جميلات العرب وأصغرهم! فهل يعقل أن يسمح لأحد أن يمدّ يده إلى هذا الإله الذي أنعم عليه وما يزال ينعم على خلفائه بميّزات لم يكونوا يحلمون بها لولاه. بل إن هاجس التسلّط والأنا وصل بمحمّد إلى درجة أن يأمر بقتل من يهجوه أو يغنّي أشعاراً تنتقده هو وليس الإله الذي تبنّاه.

ووصل الأمر بالمسلمين تخوم اللامعقول حين رأوا أنه لا يجب فقط إزالة أي مفهوم آخر للألوهة غير الله من جزيرة العرب، بل يجب إزالة كل من يؤمن بهذا الشكل الآخر للألوهة من المكان، وتجلّى ذلك واضحاً في الحديث المنسوب لمحمّد الذي يطلب أن لا يبقى دينان في جزيرة العرب.

بالمقابل، وكما أشرنا باستمرار ودلّلنا على ذلك بالبراهين القطعية، فإن محمداً الذي لم يكن أكثر من ناقل باللغة العربية لنتف من التراث العبراني اليهودي، في القرآن تحديداً، أراد القضاء على أي شهود على مصادر مقولاته؛ لذلك كان يفتعل المواجهات مع القبائل اليهودية في المدينة حتى يطردهم من عاصمته السياسيّة؛ بل إنه قضى على كل ذكر بالغ من بني قريظة، القبيلة اليهوديّة الهامّة جداً في تلك الآونة، وأجبر أطفالهم على أن يتربوا كمسلمين، وسبى نساءهم، ومنهن اختار ريحانة. واعتقادنا أنه لم يكن يخطر بباله قط أن يأتي زمان يظهر فيه يهود مثقفّون للغاية في التراث الإسلامي، ومحافظون في الوقت ذاته على تراثهم، من خارج كل المنطقة العربيّة، كي يكشفوا أصول التراث الإسلامي. وهنا لا بدّ أن نشكر الباحثين اليهود المعاصرين، من أمثال أبراهام غايغر ويوسيف هوروفيتس وهاينريش شباير، الذين كشفوا بجهودهم الطليعيّة وبدقّة وموضوعيّة . أستثني هنا غايغر إلى حدّ ما ـ المصادر الفعليّة لهذا التراث. مع ذلك؛ ورغم تحفظاتنا على أسلوب غايغر الذي أعتقد أنه كان متعصّباً لليهودية، فالواقع يقول إنّ غايغر على وجه التحديد، قام بفتح تاريخي في كتابه "ماذا أخذ محمد عن اليهودية؟"، الذي شكّل أساس البحوث التفصيلية الهامة لهاينريش شباير في عمله الضخم "الحكايا الكتابيّة في القرآن"، الذي ترجمنا فصوله الثلاثة الأولى إلى العربيّة: تلك المتعلّقة بخلق العالم والعائلة البشريّة الأولى، نوح وإبراهيم. إن مراجعة غير متسرّعة لما كتبه هؤلاء تظهر بدقّة شديدة نوعيّة إطّلاع محمّد على الهاغاداه [أشير هنا إلى أن علاقتي بالهالاخا غير وديّة: ربما لنفوري الفطري من الشرائع المكبّلة للعقل واعتباري دائماً أن الشريعة لخدمة الإنسان لا العكس] اليهوديّة: إنها معرفة سطحيّة متشظيّة أدّت به أحياناً إلى متاهات فشل حتى الآن كلّ المفسّرين والمتأوّلين في تقديم طوق نجاة للخروج منها: إلاّ إذا اعتبرنا ذلك النوع من الحلول المطمئن ذاتيّاً للباحثين عن أسرع وسيلة للهروب من الشكوك وإن بالكذب على الذات طوق نجاة لا سبيل إلى إغراقه؛ من ذلك مثلاً المتاهة الشهيرة في الخلط بين شخصيّة مريم أم المسيح ومريم أخت هارون وموسى وابنة عمران ويوكابد؛ والمتاهة الأقلّ شهرة في الخلط بين عجل سفر الخروج وعجل سفر هوشع فأضحى من ثم موسى معاصراً للسامري: مع أن المساحة الزمنيّة المفترضة بين تأسيس اليهودية وبروز السامرية تمتد مئات السنين ـ ومثل ذلك كثير.

الحديث السابق يجرّنا إلى التوقّف بنوع من التأمل التشكيكي عند ادعاء عوام المسلمين، بمن فيهم تلك الطبقة المسمّاة بالعلماء، أنّ الإسلام هو الديانة الأصح بين كل عقائد العالم لأنه يزداد قوّة، يوماً بعد يوم، في قلوب أبنائه؛ في حين تشهد الديانات الأخرى تراجعات كثيرة. لكن الوجه الآخر للعملة الذي يتجاهله المسلمون عموماً، وعلى رأسهم الطبقة المسمّاة بالعلماء، هو أن ما أدى إلى تلك التراجعات في الديانات الأخرى، كالمسيحيّة واليهوديّة، هو إعمال العقل في النقل؛ بمعنى تسلّل الفكر النقدي إلى التراث، وتفشّي الحريّة والعلمانيّة في أوساط اللاهوتيين، الأمر الذي يعمل ما يسمّى بعلماء المسلمين وحماتهم من أولياء الأمر الخائفين من أي حركيّة اجتماعيّة على منعه بشتى السبل: ومن لا يصدّق ذلك فليسألني ويسأل فرج فودة ونصر حامد أبو زيد ونجيب محفوظ..

إن حقبة من حياة محمّد ـ كيسوع المسيح تماماً ـ ، والتي يمكن أن نصفها بأنها مرحلة التكوّن الفكري عنده، بين الخامسة والعشرين والأربعين، غامضة بالكامل؛ بالمقابل، فأمهات كتب التراث الإسلامي حبلى بالأحاديث عن تردّد محمّد على بيت المدراس [بيت ها مدراش] اليهودي، ونقاشه هناك لأحبار اليهود؛ من ناحية أخرى، ثمة دليل قرآني داخلي يخبرنا أن اليهود كانوا يبيعون المسلمين، دون تحديد لشخص الشاري، آيات يزعمون أنها من كتبهم المقدّسة، وقد عنفّهم القرآن ليس لبيعهم تلك الآيات إلى العرب، بل لأنهم كانوا

يغشوّن في آيات زعموا أنها من كتبهم ولم تكن كذلك: "لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْد اللَّه لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً"؛ فمن كان يشتري تلك الآيات؟ وهل باع اليهود آيات أخرى غير تلك التي اكتشف أنها مغشوشة؟ وما هو المعيار الذي استند عليه محمد حتى اكتشف غش تلك الآيات؟ وما الهدف الفعلي وراء شراء الآيات إذا كان محمد يأتيه وحي من ربّه يعرّفه على كل شيء؟ وبأي لغة كانت تباع الآيات تلك؟ . مع ملاحظة أن النبي كان يمنع أتباعه عن أي احتكاك مع أسفار أهل الكتاب المقدّسة وربما غير المقدّسة.

هذا الأمر يطرح علينا أسئلة كثيرة قد يبدو بعضها مستحيل الإجابة حاليّاً: ما هو شكل اليهوديّة التي كانت سائدة في غرب جزيرة العرب زمن محمّد؟ من أين أتى محمّد بتلك القصص الكثيرة المشابهة في شخوصها ذات الطابع الميثولوجي لشخصيات من الهاغاداه اليهودية، وإن كان تلفّظ الأسماء بالعربيّة مختلف نوعاً ما عن مثيله العبراني، وبالتالي يفقدها معناها الرمزي الميثولوجي: غفرائيل وجبريل؛ ميخائيل وميكايل؛ أبراهام وإبراهيم؛ موشيه وموسى؛ دافيد وداود؛ شلومو وسليمان..؟ إن قصصاً كالخليقة والطوفان، بمعرفة القاصي والداني ممن يمتلك الحدّ الأدنى من الإطلاع العلمي، أضحت تدرّس في المراكز اللاهوتيّة المحترمة على أنها نتاج مخيّلة ليس إلاّ، وهي متطابقة بالكامل بين الهاغاداه والقرآن، أسماء وحوادث وشخصيات، فهل يوجد تفسير لهذا غير أن الأحدث أخذ عن الأقدم منه؟ لماذا طرد محمد اليهود وأبقى على أقليّات أخرى، كالمسيحيين، مثلاً؟ [بعكس ما يعتقده كثيرون، فإن العلاقة بين الإسلام، الديانة الرعوية، والمسيحية، الديانة الزراعيّة، غير أساسيّة: رغم إشارة القرآن إلى أن عيسى هو المسيح، كلمة ـ لوغوس ـ الله ودفاعه القوي عن مريم؛ بالمقابل، فالعلاقة، باعتقادنا، عضويّة للغاية بين الإسلام واليهوديّة، رغم أن الأخيرة تطوّرت نوعاً ما باتجاه أن تكون ديانة زراعية بعد أن نشأت رعوية بحتة]! ما سرّ استعمال المسلمين، حتى الآن، للقب أطلق على طائفة صغيرة من المسيحيين، هي النصارى، كتسمية عامّة تعني المسيحيين جميعاً؟ ونحن نعلم أن اليهود، حتى الآن، يستخدمون اللقب "نصارى" كتسمية للمسيحيين، ولهم في ذلك مبرراتهم: فهم إن أسموهم مسيحيين فهذا يعني اعترافهم العلني بيسوع على أنه المسيح المنتظر، مع العلم أنّ المسلمين، كما قلنا، يعتبرون أن عيسى [يسوع] هو المسيح؟

الباحثون الإسلاميون فاشلون بالكامل في الرد على كثير من التناقضات في بناهم المعرفيّة ونصوصهم المتوارثة؛ اليهود، منذ أيام سبينوزا وربما قبله ابن ميمون، وخاصّة بعد فلهاوزن، استطاعوا حل بعض مشاكل العهد القديم عبر التعامل معه كنص تاريخي، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة إسقاط القداسة عنه؛ المسيحيون أيضاً حقّقوا فتوحات هامّة في التعامل العقلاني مع تراثهم المقدّس أو شبه المقدّس عبر ما يسمّى بالنقديّة الكتابيّة: وهكذا فنظرية التقاليد الهامة للغاية في مقاربة الكتاب المقدّس، أضحت مسألة أقل من عادية لأبسط طالب لاهوت في أي مكان من العالم.

مشكلة المسلمين الأولى والأخيرة هي اللون الأسود. فالمسلمون لا يرون في العالم غير لون واحد، أدعوه بالأسود. وهم غير مؤهلين ذهنيّاً لاستيعاب أن العالم مليء بالألوان. كانت المعضلة الكبرى التي واجهت المسلمين، بعد أن غادروا بيئتهم ذات اللون الأوحد، اكتشافهم أن الألوان أكثر من أن تحصى: وكان أمامهم في مواجهة هذه الحالة المستجدّة حلاّن: إما أن يضعوا عصابة ـ هل اتهامهم بالتعصّب مردّه هذه العصابة؟ ـ على أعينهم وينكروا بالتالي أمام أنفسهم أولاً ومن ثم أمام الآخرين وجود لون آخر غير الذي يرونه من تحت العصابة، أو أن يعمدوا إلى تمزيق الألوان الأخرى التي تأبى إلاّ أن تتباهى بصراخها الفرح مقابل دَكانة الأسود!

أي لون آخر غير اللون الأسود الذي يلف عيون المسلمين، برأي نبي المسلمين، هو منكر؛ أي عرف متداول في بلاد المسلمين أو خارجها غير العرف المكرّس دينياً من قبلهم منكر. . وليس في الأمر مشكلة؛ فكثير من العقائد والأديان تستنكر ما هو متخارج عن أعرافها! لكن الكارثة الإنسانية في الإسلام هي القول المنسوب إلى محمد؛ الذي فحواه: من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فبلسانه: وذلك أضعف الإيمان. ومن هذا الحديث جاءت كلّ الإرهابيات الحاليّة.

المنكر أو الغريب أو المستهجن يتغيّر بتغيّر الزمان والمكان: فنحن، على سبيل المثال، نرى في الشادور للنساء، والجلابيب القصيرة واللحى غير المهذّبة كلحية التيس الأحول للرجال، أكبر منكر جمالي يمكن للعين أن تقع عليه؛ مع ذلك، فهذا المنكر لا يتعدّى بالنسبة لنا حدود الخيار الجمالي الشخصي: للأنثى كامل الحق في التشبّه بأكياس الزبالة غير الثابتة وللذكر مطلق الحريّة في اتخاذ التيس الأحول رمزاً وأمثولة. . ولا ندعو إلى تغيير هذا المنكر لا باليد ولا بالقلب ولا باللسان. بالمقابل، فالجمال ـ عارياً كان أم غير عار ـ الذي يبعث في القلب الفرح وفي الروح الشبق وفي العين الأمان هو أبعد الأمور عن المنكرات كما يصنفها الإسلام. ما من اثنين في هذا العالم يمتلكان الموازين ذاتها لما هو مستنكر وما هو غير مستنكر: فلماذا يريد أحدهم أن يفرض موازينه على غيره، ما دام هذا الغير لا يزعج غيره بخياراته؟ وكيف يمكن تبرير أن يستخدم أحدهم يده، أي الإرهاب وفق مصطلحاتنا الدراجة هذه الأيام، لتغيير ما يعتبره بالنسبة له منكراً خاصة إذا كان المنكر لا يزعج أحداً؟

حق المواطنية في اللاوعي الإسلامي يعني أن يكون المرء مسلماً. وحين ترك المسلمون جزيرتهم المعزولة المغرقة في بداوتها وفقرها وتصحّرها وإرثها اليهودي الرعوي، وجاءوا طلباً للمغانم إلى البلدان المحيطة الغنيّة ذات الحضارات الزراعيّة الموغلة في عمقها التاريخي، لم يستطيعوا إلغاء الآخرين وجوديّاً بسبب كثرتهم، فألغوهم مواطنيّاً، رغم أن الملغيين هم أبناء الوطن الأصليون واللاغين هم الغزاة، عبر ما سمّي بأحكام أهل الذمّة المنسوبة إلى عمر بن الخطّاب. . مع ملاحظة أن هذه الأحكام، التي تحيل المواطن غير المسلم إلى كائن بلا تصنيف، لا تشمل غير اليهود والمسيحيين، بمعنى أن القتل هو المصير الوحيد الذي يجب أن يواجه من هو غير مسلم أو يهودي أو مسيحي: بما في ذلك البوذيون والهندوس واللادينيين والملحدون.. إلخ.

إذن، إن القتل لأسباب عقائدية يدخل في صلب العقيدة الإسلاميّة. وكما هو معروف، فالإسلام تشعّب، لظروف لا مجال لبحثها الآن، إلى طوائف ومذاهب يكفّر أحدها الآخر، وكلّ جماعة تجد ضمن المخزون التراثي الإسلامي، المتناقض في محتواه إلى درجة الدهشة، ما يدعم آراءها مهما تضاربت! بل إن الشواهد أكثر من أن تحصى حول التكفير الداخلي بين مذاهب أهل السنّة والجماعة الأربعة. وكما نقول دائماً، فالتكفير غير ذي شأن إذا لم تكن له ذيول إجراميّة: بمعنى إلغاء المكفِّر للمكفَّر وجودياً عبر القتل. اليهودي الأرثوذكسي ينظر إلى اليهودي من طائفة الريفورم أو الري ـ كونستركشن على أنه كافر، بمعنى ما؛ بل إن حاخاماً أرثوذكسيّاً سوريّاً صديقاً أخبرني أن حاخاماً آخر من الطائفة ذاتها منعه عن الوقوف أمام كنيس في نيويورك، فقط لأنه لطائفة الريفورم اليهوديّة. لكننا لم نسمع بالمقابل عن صراع دموي يهودي داخلي، كما يحدث في باكستان بين السنّة والشيعة؛ أو عن قمع تمارسه هذه الطائفة اليهودية ضد تلك، كما يحدث في السعوديّة أو إيران. مع ذلك، فإن احتكار الأرثوذكس اليهود للقرار الديني في إسرائيل لا يخلو من القمع، حتى وإن تركت للتيارات الأخرى حريّة الحركة: بعكس الحالة في الولايات المتحدة حيث لا أحد يمتلك الحق في التميّز الديني على غيره.

هذه العقليّة الخاطئة، المنافية لأبسط حقوق الإنسان، هي التي جعلت المسلمين يعادون كلّ آخر لا يشاركهم منظومتهم العقائدية. وهكذا، ففي إحصاء بسيط نكتشف أن المسلمين غالباً ما يكونون الطرف الآخر، المثير للمشاكل عموماً، في أي صراع ديني على صعيد العالم. والأمثلة أكثر من أن تحصى: في الجزائر، الصراع الدموي على أشدّه بين التيارات الإسلاميّة والحكومة المتهمة بالعلمانيّة؛ في مصر، خفت الصراع الدموي بين التيارات الإسلاميّة والحكومة الأقل تعصّباً منهم، لكن النار ضد الأقباط لا تزال تحت الرماد؛ في يوغسلافيا السابقة، كانت الصراعات الدمويّة أيضاً بين المسلمين وكلّ من الكاثوليك والأرثوذكس؛ في الهند، المناوشات دائمة مع الهندوس؛ في إندونيسيا الحرب مستعرة بين المسلمين والمسيحيين؛ في الفلبين، الدولة الكاثوليكيّة الهامّة، لا توجد حرب إلاّ حيث يتواجد المسلمون؛ في نيجيريا، الحرب مؤجلة بين المسيحيين البروتستانت غالباً والمسلمين؛ في فرنسا العلمانيّة، لا يوجد ما يمنع الانفجار المقبل؛ في روسيّا الأرثوذكسية العلمانية، الحرب تحصد العشرات في الصراع مع المسلمين؛ في أفغانستان، المعارك لا تتوقّف بين الأمريكان وحلفائهم الأفغان من جهة، وحركة طالبان من جهة أخرى؛ في السعودية، التصادم لا يتوقّف بين الدولة المتشدّدة والمعارضة الإسلاميّة الأكثر تشدّداً؛ في غرب بورما معارك تشتعل أحياناً وتنطفئ أحياناً بين البوذيين والمسلمين؛ في الصومال، الإسلاميون يحاربون الجميع؛ في المغرب، صراعات لا تهدأ بين الدولة المسلمة ذات التوجه الغربي والجماعات المتطرّفة؛ في العالم كلّه صراع دموي لا مثيل له بين اليهود وحلفائهم من البروتستانت المحافظين من جهة والمسلمين من جهة أخرى؛ باختصار: ليس ثمة بلد في هذا العالم، للأسف، خال من المسلمين . باستثناء تلك الدول التي لم يسمع بها أحد، مثل غرينلاند وميكرونيزيا . وما دام هنالك مسلمون، ستكون هنالك صراعات حتى يتغيّر نمط التفكير الإسلامي ويفهم أن من حق الآخر المخالف أن يكون موجوداً: وهذا صعب لأنه يتطلّب إفراغ الأسس المعرفيّة للعقيدة الإسلاميّة من محتواها، أو إعادة تفسير شاملة للدين على طريقة اليهود الريفورم.

أخيراً، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أن هذه الحكومات، في البلدان الإسلامية، التي تعادي من يسمّون اليوم بالمتشدّدين أو المتطرفين، والتي تحرّض شيوخها، وعّاظ السلاطين، على محاولة التصدّي لهم دينيّاً، بعيدة بالمعنى الحرفي الفعلي عن جوهر الإسلام كما ورد في كتب العقيدة والفقه وما شابه؛ في حين أن من يوصمون بالتشدّد والتطرّف هم المطبقون الدقيقون لروح الشرع ودقائق الفقه وتفاصيل العقيدة. وإلاّ لماذا فشل الشيخ القرضاوي، وهو واحد من أشهر وعاظي السلطان الحاليين، في إقناع حركة طالبان، دينيّاً، في إلغاء تحطيمهم لتماثيل بوذا، تلك الأوابد التاريخيّة المغرقة في أهميتها؟

القرضاوي والبوطي وشيخ الأزهر وأمثالهم لا يمثّلون الإسلام، كما عرفناه من التاريخ وأسفار العقيدة والفقه؛ بالمقابل فإن أسامة بن لادن والطالبانيون هم أفضل الممثلين للالتزام الإسلامي الأدق. ومن قال غير هذا فهو إما سياسي أو منافق.

أسامة بن لادن يغيّر المنكر بيده؛ القرضاوي والبوطي وشيخ الأزهر يغيّرون المنكر بقلوبهم: وذلك أضعف الإيمان!!!

انتهى الدرس الأول.

تعلّم الإسلام في خمسة أيام . اليوم الثاني

بقلم: نبيل فياض

الدرس الثاني: النفاق!!

في أية ديانة عرفها عالمنا، قديماً أو حديثاً، يبدو أن الخلاص أو الحساب والعقاب أو الكارما أو أي مفهوم اسكاتولوجي مشابه آخر، مسألة فرديّة صرفة. فلا الله ولا يهوه ولا أهورا مازدا أخبرونا، عبر من يُفترَض أنهم أنبياؤهم، أنهم سيحاسبون البشرية جماعيّاً: الإنسان، إن في الإسلام أو اليهوديّة أو الزرادشتيّة، وفق المنظور الديني الذي لا أدلّة غير ظنيّة عليه، هو الذي يحدّد بنفسه مصيره الاسكاتولوجي: فأعماله في العالم الدنيوي هي وحدها التي يمكن أن توصله إلى جنّة الخلد أو إلى أعماق الجحيم. . حتى الإسلام، الديانة العجائبيّة، كما تقدّمها لنا كتب الفقه والتاريخ والعقيدة وما شابه، يقرّ بأن الأب الصالح لا يستطيع اصطحاب أولاده الطالحين معه إلى الجنّة: بل إنّ السنّة يعتقدون أن النبي ذاته لن يستطيع منع نار جهنم أن تكوي بلهيبها عمّه أبا طالب الذي مات كافراً: بعكس الشيعة، سادة النفاق الإسلامي، الذين يخترعون لأبي طالب، والد علي، قصصاً وخرافات تجعله قاب قوسين أو أدنى من الله. . مع أن أبا طالب هذا، كافراً كان أم مؤمناً، له من الأفضال على الإسلام ما يجعلنا نقول بثقة أن لولاه لما كان ثمّة دين اسمه إسلام! وهذا ما يضمن له، بلا ريب، جحيماً أخلاقياً أين منه جهنم الزرادشتيين؟

من هنا، ولأن الخلاص مسألة فردية لا جمعيّة، اتجهت كل الديانات المحترمة، باستثناء الإسلام والكنيسة العربية طبعاً، إلى اعتبار الدين . يفضّل تسميته بالإيمان . شأناً فرديّاً خاصّاً. في الغرب، حيث الإنسان محترم والقيم الفعلية موجودة والحريّات مصانة، ثمّة ميل لأن لا يحسب على الدين من ليس منه: وهكذا، فنحن نصادف المؤمن وغير المؤمن واللا أدري والملحد، كلّ ذلك في إطار من التعايش الإنساني والاحترام المتبادل. وأذكر تماماً أنّ أحد الأصدقاء من الألمان غير المؤمنين من أصول مورمونيّة، حين توفّى، كان نص النعي المرسل إلي من زوجته يتضمّن اعتذار العائلة عن أية طقوس ذات طابع ديني، دون حرج أو خوف. باختصار، في العالم الآن، باستثناء العالم الإسلامي، توجّه عام لنبذ النفاق وكافّة أشكال الباطنيّة، التي أضحت عند الشيعة مرتكزاً أساسيّاً في العقيدة.

بعكس ما تتحفنا به من محطّات النفط المتلفزة البقرات السود الأمريكيات المحجّبات، اللواتي لا يفرّقن بين عمر بن الخطّاب وعمر الشريف، ويخلطن . كما فعل النبي محمد وهو يتحدّث عن مريم . بين خديجة بنت خويلد وخديجة بن قنة، ويعتقدن أن الإمام النووي هو مخترع القنبلة الذريّة، فالإسلام هو الديانة الوحيدة في العالم، على الأرجح، التي تعتمدّ الكمّ لا النوع في دعوتها. وربما أن مردّ هذا، شعور محمّد بالضعف وهو يواجه أعداء لا حصر لهم بأعداد من المسلمين ضئيلة قليلة. ولأن المسلمين أرواح هائمة لا علاقة لها بالزمان والمكان، ولأن ما جاء به محمد "يُفهم دائماً من منظور الأبديّة"، فأعمال محمّد وأقواله صالحة لكل

زمان ومكان، حتى وإن كان ذلك معادٍ تماماً لأبسط معطيات العصر . والإنسانيّة الحقّة: كالرقّ وذيوله من تسرّ وملك يمين وما شابه.

إلى هنا والأمر العادي: فتفضيل المسلمين للكمّ على الكيف مسألة لا تعني غير أصحابها؛ وكثير من الناس، ممن لم يتخلّصوا قط من شعور البداوة والقبليّة، يحتاجون على الدوام لروح "العزوة" كي تغادرهم حشرجات البدو حين تكون قبيلتهم صغيرة. أما أن يشرّع الإسلام النفاق في سبيل أن يزيد من عدد أبنائه، فذلك هو غير العادي، بل والمستهجن، ليس فقط من منظور ديني إيماني، بل وفق أبسط أسس الالتزام الأخلاقي والعقائدي.

بدأ تشريع النفاق مبكّراً جدّاً في الإسلام حين شجّع محمد أحد أتباعه، الذي هو على الأرجح عمّار بن ياسر (لا أجد من الضروري أن أوثّق لكلّ كلمة أوردها من التاريخ الإسلامي؛ فزيادة بدوي أو نقص بدوي أمر لا يهم الحضارة كثيراً)، والذي تعرّض لعذاب قوي من المكيين المعارضين كي يشتم نبيّه، أن لا يعرّض حياته للخطر ما دام قلبه عامراً بالإيمان: بمعنى أن يشتمه بلسانه ويقدّسه في قلبه: الأمر الذي يناقض تماماً، باعتقادنا، ما رواه الإنجيل حول موقف بطرس من يسوع حين أنكره ثلاث مرات قبل صياح الديك.

ليس النبي هو الذي شرّع النفاق فحسب، بل إن الله، عزّ وجلّ، بالمنطوق الإسلامي الأغرب، أقر من عليائه بهذا النمط من الممارسة. وللمرّة الأولى في التاريخ الديني المدوّن، وفق ما وصل إلينا من وثائق، يطلب إله من أحد ممثّليه على الأرض أن يشتري إيمان الناس بالنقود الكثيرة التي جاءته من تجارة الألوهة. وهكذا، ينفرد الإسلام، بين كلّ ديانات العالم، بمسألة المؤلّفة قلوبهم: فما الذي تعنيه هذه العبارة؟

حتى يكون كلامنا واضحاً قاطعاً، نقدّم هنا شواهد من كتب التفسير والحديث تناولت هذه المسألة الغريبة:

"وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، فَإِنَّهُمْ قَوْم كَانُوا يُتَأَلَّفُونَ عَلَى الإسلام مِمَّنْ لَمْ تَصِحّ نُصْرَته اِسْتِصْلاحًا بِهِ نَفْسه وَعَشِيرَته، كَأَبِي سُفْيَان بْن حَرْب وَعُيَيْنَة بْن بَدْر وَالأَقْرَع بْن حَابِس، وَنُظَرَائِهِمْ مِنْ رُؤَسَاء الْقَبَائِل.. عَنْ اِبْن عَبَّاس، قَوْله: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ} وَهُمْ قَوْم كَانُوا يَأْتُونَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ أَسْلَمُوا، وَكَانَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْضَخ لَهُمْ مِنْ الصَّدَقَات، فَإِذَا أَعْطَاهُمْ مِنْ الصَّدَقَات فَأَصَابُوا مِنْهَا خَيْرًا قَالُوا: هَذَا دِين صَالِح! وَإِنْ كَانَ غَيْر ذَلِكَ، عَابُوهُ وَتَرَكُوهُ.. عَنْ الزُّهْرِيّ، قَالَ: قَالَ صَفْوَان بْن أُمَيَّة: لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّهُ لأَبْغَض النَّاس إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبّ النَّاس إِلَيَّ.. عَنْ مُجَاهِد، قَالَ: نَاس كَانَ يَتَأَلَّفهُمْ [محمد] بِالْعَطِيَّةِ، عُيَيْنَة بْن بَدْر وَمَنْ كَانَ مَعَهُ.. عَنْ الْحَسَن: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ}: الَّذِينَ يُؤَلَّفُونَ عَلَى الإسلام.. عَنْ قَتَادَة: وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، فَأُنَاس مِنْ الأَعْرَاب وَمِنْ غَيْرهمْ، كَانَ نَبِيّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَأَلَّفهُمْ بِالْعَطِيَّةِ كَيْمَا يُؤْمِنُوا.. مَعْقِل بْن عُبَيْد الله، قَالَ: سَأَلْت الزُّهْرِيّ عَنْ قَوْله: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ} فَقَالَ: مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيّ أَوْ نَصْرَانِيّ. قُلْت: وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا.. ثُمَّ اِخْتَلَفَ أَهْل الْعِلْم فِي وُجُود الْمُؤَلَّفَة الْيَوْم وَعَدَمهَا، وَهَلْ يُعْطَى الْيَوْم أَحَد عَلَى التَّأَلُّف عَلَى الإسلام مِنْ الصَّدَقَة؟ فَقَالَ بَعْضهمْ: قَدْ بَطَلَتْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ الْيَوْم، ولا سَهْم لأَحَدٍ فِي الصَّدَقَة الْمَفْرُوضَة إلا لِذِي حَاجَة إِلَيْهَا وَفِي سَبِيل الله أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا.. عَنْ الْحَسَن: {وَالْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ} قَالَ: أَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ فَلَيْسَ الْيَوْم.. عَنْ عَامِر، قَالَ: لَمْ يَبْقَ فِي النَّاس الْيَوْم مِنْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، إِنَّمَا كَانُوا عَلَى عَهْد رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. حِبَّان بْن أَبِي جَبَلَة، قَالَ: قَالَ عُمَر بْن الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُ، وَأَتَاهُ عُيَيْنَة بْن حِصْن: {الْحَقّ مِنْ رَبّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}؛ أَيْ لَيْسَ الْيَوْم مُؤَلَّفَة.. عَنْ الْحَسَن، قَالَ: لَيْسَ الْيَوْم مُؤَلَّفَة.. عَنْ عَامِر، قَالَ: إِنَّمَا كَانَتْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ عَلَى عَهْد النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا وَلِيَ أَبُو بَكْر رَحْمَة الله تَعَالَى عَلَيْهِ اِنْقَطَعَتْ الرَّشَا. وَقَالَ آخَرُونَ: الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ فِي كُلّ زَمَان، وَحَقّهمْ فِي الصَّدَقَات.. عَنْ أَبِي جَعْفَر،

قَالَ: فِي النَّاس الْيَوْم الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ.. أَبُو جَعْفَر: وَالصَّوَاب مِنْ الْقَوْل فِي ذَلِكَ عِنْدِي: أَنَّ الله جَعَلَ الصَّدَقَة فِي مَعْنَيَيْنِ: أَحَدهمَا سَدّ خُلَّة الْمُسْلِمِينَ. وَالآخَر مَعُونَة الإِسلام وَتَقْوِيَته؛ فَمَا كَانَ فِي مَعُونَة الإِسلام وَتَقْوِيَة أَسْبَابه فَإِنَّهُ يُعْطَاهُ الْغَنِيّ وَالْفَقِير، لأَنَّهُ لا يُعْطَاهُ مَنْ يُعْطَاهُ بِالْحَاجَةِ مِنْهُ إِلَيْهِ وَإِنَّمَا يُعْطَاهُ مَعُونَة لِلدِّينِ، وَذَلِكَ كَمَا يُعْطَى الَّذِي يُعْطَاهُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيل الله، فَإِنَّهُ يُعْطَى ذَلِكَ غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا لِلْغَزْوِ لا لِسَدِّ خَلَّته. وَكَذَلِكَ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ يُعْطَوْنَ ذَلِكَ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاء، اِسْتِصلاحًا بِإِعْطَائِهِمْ أَمْر الإِسلام وَطَلَب تَقْوِيَته وَتَأْيِيده. وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَعْطَى مِنْ الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ، بَعْد أَنْ فَتَحَ الله عَلَيْهِ الْفُتُوح وَفَشَا الإِسلام وَعَزَّ أَهْله، فلا حُجَّة لِمُحْتَجٍّ بِأَنْ يَقُول: لا يُتَأَلَّف الْيَوْم عَلَى الإِسلام أَحَد لامْتِنَاعِ أَهْله بِكَثْرَةِ الْعَدَد مِمَّنْ أَرَادَهُمْ وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَعْطَى مِنْهُمْ فِي الْحَال الَّتِي وَصَفْت".

وفي نصّ آخر مشابه، نجد القول التالي:

"لا ذِكْر لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبهمْ فِي التَّنْزِيل فِي غَيْر قَسْم الصَّدَقَات، وَهُمْ قَوْم كَانُوا فِي صَدْر الإِسلام مِمَّنْ يُظْهِر الإِسلام، يَتَأَلَّفُونَ بِدَفْعِ سَهْم مِنْ الصَّدَقَة إِلَيْهِمْ لِضَعْفِ يَقِينهمْ.. وَقَالَ بَعْض الْمُتَأَخِّرِينَ: اُخْتُلِفَ فِي صِفَتهمْ، فَقِيلَ: هُمْ صِنْف مِنْ الْكُفَّار يُعْطَوْنَ لِيَتَأَلَّفُوا عَلَى الإِسلام، وَكَانُوا لا يُسْلِمُونَ بِالْقَهْرِ وَالسَّيْف، وَلَكِنْ يُسْلِمُونَ بِالْعَطَاءِ وَالإِحْسَان. وَقِيلَ: هُمْ قَوْم أَسْلَمُوا فِي الظَّاهِر وَلَمْ تَسْتَيْقِن قُلُوبهمْ، فَيُعْطَوْنَ لِيَتَمَكَّن الإِسلام فِي صُدُورهمْ. وَقِيلَ: هُمْ قَوْم مِنْ عُظَمَاء الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ أَتْبَاع يُعْطَوْنَ لِيَتَأَلَّفُوا أَتْبَاعهمْ عَلَى الإِسلام. قَالَ: وَهَذِهِ الأَقْوَال مُتَقَارِبَة وَالْقَصْد بِجَمِيعِهَا الإِعْطَاء لِمَنْ لا يَتَمَكَّن إِسلامه حَقِيقَة إِلا بِالْعَطَاءِ، فَكَأَنَّهُ ضَرْب مِنْ الْجِهَاد.

وَالْمُشْرِكُونَ ثَلاثَة أَصْنَاف: صِنْف يَرْجِع بِإِقَامَةِ الْبُرْهَان. وَصِنْف بِالْقَهْرِ. وَصِنْف بِالإِحْسَانِ. وَالإِمَام النَّاظِر لِلْمُسْلِمِينَ يَسْتَعْمِل مَعَ كُلّ صِنْف مَا يَرَاهُ سَبَبًا لِنَجَاتِهِ وَتَخْلِيصه مِنْ الْكُفْر. وَفِي صَحِيح مُسْلِم مِنْ حَدِيث أَنَس، فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْنِي لِلأَنْصَارِ . : (فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْد بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفهُمْ..) الْحَدِيث. قَالَ اِبْن إِسْحَاق: أَعْطَاهُمْ يَتَأَلَّفهُمْ وَيَتَأَلَّف بِهِمْ قَوْمهمْ. وَكَانُوا أَشْرَافًا.. وَقَدْ عُدَّ فِي الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ مُعَاوِيَة وَأَبُوهُ أَبُو سُفْيَان بْن حَرْب. أَمَّا مُعَاوِيَة فَبَعِيد أَنْ يَكُون مِنْهُمْ، فَكَيْفَ يَكُون مِنْهُمْ وَقَدْ اِئْتَمَنَهُ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَحْي الله وَقِرَاءَته وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا حَاله فِي أَيَّام أَبِي بَكْر فَأَشْهَر مِنْ هَذَا وَأَظْهَر.".

وفي نصّ ثالث؛ يقال أموراً مشابهة:

"وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَة قُلُوبهمْ فَأَقْسَام: مِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيُسْلِم.. وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَحْسُن إِسلامه وَيَثْبُت قَلْبه كَمَا أَعْطَى يَوْم حُنَيْن أَيْضًا جَمَاعَة مِنْ صَنَادِيد الطُّلَقَاء وَأَشْرَافهمْ مِائَة مِنْ الإِبِل وَقَالَ "إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُل وَغَيْرُهُ أَحَبّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَة أَنْ يَكُبّهُ الله عَلَى وَجْهه فِي نَار جَهَنَّم" . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيد أَنَّ عَلِيًّا بَعَثَ إِلَى النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّمَ بِذُهَيْبَة فِي تُرْبَتهَا مِنْ الْيَمَن فَقَسَمَهَا بَيْن أَرْبَعَة نَفَر: الأَقْرَع بْن حَابِس وَعُيَيْنَة بْن بَدْر وَعَلْقَمَة بْن عُلاثَة وَزَيْد الْخَيْر؛ وَقَالَ: "أَتَأَلَّفهُمْ"! وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِمَا يُرْجَى مِنْ إِسلام نُظَرَائِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى لِيَجْبِيَ الصَّدَقَات مِمَّنْ يَلِيه أَوْ لِيَدْفَع عَنْ حَوْزَة الْمُسْلِمِينَ الضَّرَر مِنْ أَطْرَاف الْبِلاد وَمَحَلّ تَفْصِيل هَذَا فِي كُتُب الْفُرُوع وَالله أَعْلَم. وَهَلْ تُعْطَى الْمُؤَلَّفَة عَلَى الإِسلام بَعْد النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟"

وفي نصّ آخر؛ نقرأ التالي:

"لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا [غضبوا منه] إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كلما قال شيئا قالوا الله

ورسوله أمن! قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض!!".

من الملفت للنظر أن الشيعة . أتحدّث هنا تحديداً عن كتاب "النص والاجتهاد" لعبد الحسين شرف الدين . ضمن هجومهم الضاري على بعض الصحابة، يعيبون على عمر بن الخطّاب، ضمن أشياء كثيرة، إلغاءه لحكم إلهي حين منع سهم المؤلفة قلوبهم.

عن أبي سفيان، الذي تخبرنا المراجع الإسلاميّة أنّه بعد مقتل عمر بن الخطّاب، ورسو الأمر على عثمان بن عفّان؛ أنّه قال لبني أميّة: تلقفوها [الخلافة] تلقف الكرة؛ فما من جنّة ولا نار!!! هذا الرجل، الذي أعطاه محمد بعد فتح مكّة ليفهرسه ضمن قطيعه، والذي بعد أكثر من عشر سنوات على وفاة محمد لم يكن يؤمن لا بالجنّة ولا بالنار، أسلم بضغط من عمّ محمّد، العبّاس؛ وكي يستميله محمد أكثر، قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن!!! عن إسلام أبي سفيان المزعوم، تقول بعض المراجع الإسلاميّة:

أرسلت قريش "أبا سفيان وحكيم بن حزام وبُديْل بن ورقاء ليتحسسوا أخبار المسلمين، فلقيهم العباس راكباً بغلة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولاً يطلب منهم الخروج لمصالحة النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء العباس بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا، وأسلم أبو سفيان بعد تردد منه، وملاطفة من النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي حتى يستعرض قوات المسلمين، وتمر به جنود الله فيراها، فلا تبقى في نفسه أثارة لمقاومة، وهو سيد مكة المتبوع، فجعل أبو سفيان يسأل العباس كلما مرت كتيبة: من هؤلاء؟ ويعرفُه العباس بهم".

ويحدّثنا مرجع آخر؛ فيقول:

"وقال ابن إسحاق: ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يدرون ما رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعل، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به.. عن عروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بين يديه عيونا خيلا يقتصون العيون.. ، فلما جاء أبو سفيان وأصحابه أخذتهم خيل المسلمين، وقام إليه عمر يجأ في عنقه، حتى أجاره العباس بن عبد المطلب، وكان صاحبا لأبي سفيان. .. قال العباس: ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. قال: قلت: يا رسول إني قد أجرته. ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل. فلما أكثر عمر في شأنه. قال: قلت: مهلا يا عمر فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت

فأتني به". قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟" فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد. قال: "ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟" قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا. فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم. قال العباس: فقلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئا. قال: "نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ـ زاد عروة: "ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن".

مشكلة الإسلام الأبديّة، أن الأباسفيانات فيه هم الغالبيّة الساحقة ـ وما تبقى قلّة لا تذكر من السذّج والمغفّلين والشيعة.

نبيل فياض، كانون الثاني ـ يناير 2004

تعلّم الإسلام في خمسة أيام . اليوم الثالث

الدرس الثالث : اللا عقل

بقلم نبيل فياض

ما من شكّ أن الإسلام هو أشهر الديانات عدائية للعقل في العالم هذه الأيام. والحقيقة أن مقتل الإسلام هو العقل: فأي تسلّل للعقل إلى داخل الإسلام كاف لتفجيره والإطاحة به، مرّة وإلى الأبد. مع ذلك، والحق يقال، فقد عرف التاريخ الإسلامي تجربتين عقلانيتين يتحتم علينا، كعقلانيين، الانحناء أمامهما باحترام لا يضاهى: أي، التجربة الاعتزاليّة والتجربة الإسماعيليّة. وفشل هاتين التجربتين هو الدليل الأبرز ليس على الأسس الواهية للمعتزلة أو الإسماعيليين، بل على أن العرب لم ينموا عقليّاً بحيث يستوعبون ما تطرحه هاتان التجربتان النخبويتان . والوقائع الموضوعيّة تثبت لكلّ ذي عين بصيرة أن العرب تراجعوا في العقود الأخيرة عقليّاً إلى درجة أنه لم يعد يناسب سقوطهم الفكري سوى الوهابيّة، للسنّة، والخمينيّة، للإثني عشريين.

لقد ساعدني حسن طالعي وظروفي الجغرافية على الاحتكاك بتلك الفئة الإسلاميّة الرائعة المعزولة الآن المسمّاة بالإسماعيليين. ووقتها أدركت أنّ كلامي الذي نشرته قبلها عن الإسلام لم يكن دقيقاً تماماً: حيث اتهمته بأنه الديانة التي لم يرتح فيها العقل يوماً. . لكن الإسماعيليين خيّبوا فألي. وكدارس ومتابع ومن ثم باحث في اللاهوتين اليهودي والمسيحي، توصّلت إلى ما مفاده أن الإسماعيليين، عبر الكرماني في "راحة العقل" مثلاً، استطاعوا القيام بفتوحات لاهوتيّة يمكن مقارنتها، دون مبالغة، مع ما كتبته شخصيّة مثقفة عظيمة من القرن العشرين كبولتمان أو أقرانه! دون أن ننسى فارق الزمن والتراكميّة المعرفيّة الألمانية التي لا يمكن مقارنتها بالتوافه التي قدّمتها ما تسمّى خطأ بالحضارة الإسلاميّة، التي إذا ما عرّيناها من الإسماعيليين والمعتزلة لأضحت ربعاً خالياً ثقافيّاً.

كان طبيعيّاً للغاية أن تغلّ بلاد الهلال الخصيب المدرستين الإسماعيليّة والإعتزاليّة. ففي هذه الأرض ذات الحضارات الزراعيّة الموغلة في القدم، كان من المستحيل تحمّل الإسلام بشكله الرعوي البدائي اللا حضاري: وكان لابدّ من الوصول إلى صيغ توفيقيّة تضمن لشعب الهلال الخصيب استمراريّة أعرافه الثقافيّة حتى ضمن هذه البنى الرعوية الغريبة المستوردة. وهكذا، اجتاح العقل اليونانيّ الراسخ الوافد الصحراوي الجديد ليظهر كيان معرفي رائع قائمتاه هاتان المدرستان.

من الأمور المألوفة عند هؤلاء البدائيين الذين غزوا سوريّا من صحرائهم القاحلة: التعميم. فهم لا يفهمون وجود بيئات أخرى لا تحمل لون الرمل الأغبر؛ لا يتخيّلون وجود حضارات بأوابد شاهقة لا خيمة فيها ولا وتد؛ لا يعتقدون بوجود حيوان غير الجمل؛ لا مكان في قواميسهم لامرأة خارج نطاق الحريم والسبايا؛ لا يستوعبون

علاقات سلام وحبّ بين الشعوب لأن أسلوب التعاطي بين الناس عندهم لا يخرج عن نطاق الغزو والسبي!! من هنا، فكلّ التيارات السياسيّة التي اجتاحت المنطقة تحت اسم القوميّة العربية، كالناصريين والبعثيين وما شابه، والتي هي ليست أكثر من أصوليّات إسلاميّة ترتدي أقنعة قوميّة كاذبة، لم تستطع يوماً أن تفهم أبجدية التعدّد. ومن مصائب هذه النوعيّة القاصرة من التفكير، تعميم stereotype عربي لا يميّز إطلاقاً بين اليمني واللبناني؛ بين الصومالي والتونسي؛ وبين الكركوكي والنواكشوطي: ورغم أن سوريّا أقرب إلى أوروبا ثقافيّاً من تركيّا، فقد حاول البعثيون بأقصى ما لديهم من إمكانيات مسخ الكائن السوري حتى يفقد تعدّديته ويصبح بالتالي أقرب ما يكون إلى اليمني أو السعودي أو ما شابه: فلا يتسلّل الشك إلى نظريتهم القوميّة النيو-أصوليّة العقيمة. إنّ الحقيقة التي سيستنكرها هذه المرّة الجميع هي أن سوريّا كانت على الدوام جزءاً من بيزنطة المتهلينة، في حين كانت الصحراء والبادية السورية تشكّلان حاجزاً جغرافيّاً طبيعيّاً بين سوريّا وجزيرة العرب؛ وحين غزا المسلمون سوريّا لسرقة خيراتها فحسب، لم يستطيعوا، وهم الذين لم يكونوا أكثر من سيوف دامية تريد تعميم القيم اليهوديّة في وجه الهلينيّة، أن يقضوا على الإرث البيزنطي الهليني الراسخ في بلد التعدّدية، والذي أعاد ظهوره عبر حركات فكريّة هامّة للغاية كالإسماعيليّة والإعتزاليّة. بل يمكن القول إن الإسماعيليّة ذات المضمون الفلسفي اليوناني الواضح انتشرت في إحدى الأحقاب بحيث طالت سوريّا كلّها؛ لكن مجيء قوميّة أخرى أكثر بدائيّة وتخلّفاً من العرب إلى سوريا هي الأكراد، أعاد المسألة إلى نقطة الصفر: لقد أعاد صلاح الدين الأيوبي، الذي كان مؤازراً، كما المسلمين الذين غزوا هذا الإقليم، بعبقرية يهودية هو ابن ميمون، سوريّا إلى نقطة الصفر. وفي اعتقادنا الذي لا يوافقنا أحد عليه أن بقاء الصليبيين في بلاد الشام كان أفضل حضارياً لنا، بما لا يقارن، من دخول هذا الكردي المتخلّف وابن ميمونه.

والحقيقة التي لا مجال لدحضها أن كمشة من الأكراد، برعاية من الدولة العبقرية، ما تزال إلى الآن هي المسؤولة عن الجزء الأكبر من جريمة نشر الطائفيّة والإرهاب والتخلّف بكافة أشكاله في ربوع سوريّا: من أمثال آل كفتارو والبوطي وأولاده وزياد الأيوبي والراحل مروان شيخو . هؤلاء الباحثون عن مجد سياسي عبر الطائفيّة لأنهم ببساطة يفتقدون حسّ الانتماء الذي لا يمتلكونه أصلاً، ومن أجل ذلك نجدهم مستعدّين لإيصال المجتمع السوري إلى الهاوية. في حين أن الطوائف الصغيرة المتهلينة كلّها، باستثناء عبدة الشيطان الأكراد، هي سوريّة قلباً وقالباً: بغض النظر عن اللاطائفيين من السنّة والذين هم في غالبيتهم الساحقة من السوريين الأصلاء لا الدخلاء: ونحن منهم.

حدود العقل في الإسلام: مثال دامغ

لا شكّ أنّ مطلق مسلم تقليدي، مثقفاً كان أم جاهلاً، يؤمن دون أدنى تفعيل للعقل بآدم ونوح وابراهيم وغيرهم من الشخوص التي تفتّق عنها العقل اليهودي في عزلته القاتلة: دون أن ننسى بالطبع ما تمّ لطشه من الميثولوجيا السورية القديمة. والطامة الكبرى حين تقابل أستاذاً جامعيّاً أو متعلّماً بدرجة معقولة يحدّثك عن هذا الوجود غير المشكوك به لآدم أو نوح أو ابراهيم وكأنهم أولاد خالته! أو يروي لك قصّة هبوط آدم من الجنّة وكأن أمّه كانت برفقته في البارشوت الإلهي غير الملموس! أو يصف لك تفاصيل سفينة نوح والحيوانات التي كانت برفقته وكأنه هو ذاته كان يمسك بصاريتها! لماذا؟ لأن هذه الحكايا وردت في القرآن! والقرآن كتاب الله! لكن: ما أدراك أن القرآن كتاب الله؟ قال لنا النبي محمّد ذلك! وما أدراك أن النبي محمّداً كان محقّاً في ما يقول؟ ألا ترى كمّ المؤمنين به؟ ألا ترى أنت بالمقابل كمّ المؤمنين بقداسة البقرة؛ ألا ترى كمّ المؤمنين بنبوّة جوزيف سميث؟ ألا ترى كمّ المؤمنين المتزايد بين المسلمين السنّة بخاصّة بنبوّة الميرزا غلام

أحمد القادياني، مؤسّس الديانة الأحمديّة؟ في النهاية، فإن أوسع العقائد انتشاراً يمكن أن تكشف لنا بعد خراب البصرة أنها كانت قائمة على كذبة صغيرة.

كي نحدّد مدى التضيّق المتصاعد في العقل الإسلامي؛ نتساءل: إذا كان عمر البشرية على الأرض . إذا أهملنا عمداً نشوء دارون وارتقائه . لا يقلّ عن ستين مليون عام، كيف استطاعت الذاكرة البشرية أن توثّق لحدث حصل قبل أن أكثر من ستين مليون عام وصمتت طويلاً لتؤرّخ من جديد لحوادث لا يتعدّى عمر أقدمها عشرة آلاف عام؟ أين كان آدم وزوجه قبل ولوجهما في هذا العالم، وكيف استطاعا الهبوط من الجنّة المزعومة: بغض النظر عن مسألة الجاذبيّة، التنفّس.. إلخ؟ آدم، حوّاء، قابيل [قايين]، هابيل: أسماء عبرانيّة [الأمر طبيعي فالقصّة ملطوشة عن الهاغاداه]: فإذا عرفنا أن عمر اللغة العبريّة، بأفضل حال، لا يتجاوز خمسة آلاف سنة: كيف استطاع الله أن يختار لعائلته الأولى أسماء من لغة ظهرت إلى الوجود بعد لا أقل من ستين مليون عام من خلق الإنسان؟ في التراث الميثولوجي السوري أساطير تتطابق نوعاً ما مع حكاية الخلق اليهوديّة تلك: هذا يعني، في ظل اللاواقعية المفرطة لهذه الأسطورة، أن الأحدث أخذ عن الأقدم؛ ويعني أيضاً أن القصة القرآنية ملطوشة هي أيضاً، عبر العبرانيين، عن التراث الوثني السوري القديم؛ فكيف يمكن للمسلم الذي يريد تفعيل عقله الخروج من هذه التناقضات؟ [يمكن لمن يرغب بتفاصيل دقيقة في المسألة مراجعة كتابنا: القصص الديني].

من ناحية أخرى، فأسطورة الطوفان القرآنيّة، كما بينّا في كتابنا "حكايا الطوفان"، ليست أكثر من ترجمة عربيّة لنتف مختارة بنوع من النزق لنصوص هاغاديّة عبرانيّة. والهاغاده العبرانيّة، كما بيّنا في الكتاب إياه، مأخوذة حرفيّاً عن نصوص مشابهة من التراث السوري الميثولوجي القديم. بالمقابل، ففي الكتاب أسئلة منطقيّة كثيرة لا مجال للعقل الإسلامي الموغل في تحدّده للإجابة عليها؛ مثلاً: من أين جاءت تلك المياه التي غمرت الأرض كلها إذا كان كمّ الماء في العالم محدوداً تماماً (منطق لافوازيه)؟ كيف يمكن تفسير وجود حيوانات بعينها في جزر معزولة نائية . الكنغارو والكوالا في أستراليا والكيوي في نيوزلندة مثلاً . والتي يفترض أنها رافقت نوح في فلكه الذي رسا في مكان ما غير بعيد عن الشرق الأوسط؟ أين ذهب ذاك الكم المخيف من المياه إذا كان العلم الحديث يحدّد بدقة الموضوع ويظهر أن الأرض لا تحتوي داخلها ذاك الكم الذي تحدّث عنه اليهود والمسلمون ومن قبلهم السوريون القدماء؟

بالنسبة إلى إبراهيم، فسوف نبيّن في عملنا الذي انتهينا منه للتو [سيمنعه البعثي الرفيق أحمد ضرغام، دكتاتور الثقافة النيو. أصولي في سوريّا]، "حكاية ابراهيم في القرآن"، أن قصّة هذا النبي هي أدق وأكمل لطش إسلامي عن الهاغاده غير التوراتيّة، خاصة السفر الهاغادي غير المعروف . ربما أنهم لا يريدونه أن يعرف . معاسه أبراهام. وحتى أوضح المسألة؛ يمكن أن أقدّم هنا بعض النماذج من هذا العمل الذي لم يطبع بعد:

في السورة 37: 97 . 99 (2مك): "قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقال: إني ذاهب إلى ربّي سيهدين".

إذن، بحسب القرآن، فالله بذاته هو الذي ينقذ إبراهيم من النار. وهكذا تروي أيضاً بساحيم 118 آ: "عندما رمى نمرود أبانا إبراهيم في النار، قال الملك جبرائيل لله: يارب العالمين، أريد أن أنزل، فأبرّد النار وأخلّص الصالح من النار. فقال له الله: أنا في عالمي فريد، وهو في عالمه فريد؛ ويبدو أنّ الذي لديه الفرادة، هو الذي سيخلّص الآخر الذي لديه الفرادة".

وبحسب مجموعة المدراشيم الصغيرة لهوروفيتس، ص 43 وما بعد، تتشاجر الملائكة حول من سيسمح له بإنقاذ إبراهيم؛ أما في معاسه ابرهام، يلنيك، بيت ها مدراش 32 : I، يأمر الله النار بكلمات القرآن، قائلاً: "يا نار كوني برداً وسلاماً على عبدي ابراهام".

السورة 58:21 (2مك): "فجعلهم (الأصنام) جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون". في أبوكاليبس أبراهام، (تحرير Bonwetsch ، ص 10)، نجد حكاية مشابهة: "في يوم ما، وكان والد إبراهيم يقوم بحفر أصناماً، فأمره أن يحضر له طعاماً. فتناول إبراهيم أحد الأصنام، وضعه في النار ما وراء القدر، وقال له: إذا كنت إلهاً، خذ حذرك من القدر! ورأى ما رأى فضحك لذلك كثيراً، وقال لأبيه: أبي، هذه الأصنام غير جيدة، فهي لا تستطيع أن تحمي ذاتها، فكيف ستحمينا؟.. كان والده غاضباً، فقال: لقد وقعنا نحن الاثنان مرضى، يا بنيّ، فأنا أسير باتجاه العدم. بعدئذ، وقف إبراهيم وأخذ الأصنام ووضعها على حمار وجاء بها إلى المدينة لبيعها. فرأى مستنقعاً من الوحل ضخماً للغاية، فقال للأصنام: إذا كنت آلهة، فحذري الحمار، كي لا يغوص في الوحل. ومضى الحمار وغاص في الطين. فقال لها إبراهيم: لو كنت آلهة خيّرة، إذاً.. لاعتنيتم بذواتكم؛ لكنكم آلهة شريرة، وأنتم بالتالي تدعمون الأشرار أيضاً. فتناولها وحطّمها.. "النص ذاته، ص 12، يخبرنا كيف يجد ابراهام الصنم ماروماث Marumath راكعاً أمام أقدام الرب الحديدي ناحوراس Nahoras: "وحدث، عندما رأيت ذلك، أن قلبي اضطرب، وفكّرت بعقلي، أنّي غير قادر، أن أعيده إلى مكانه، أنا، إبراهيم، وحدي، لأنّه كان صلباً مصنوعاً من حجر كبير، فذهبت وأعلمت والدي بالأمر. فرحت معه، وبالكاد استطعنا نحن الاثنان تحريكه، لإعادته إلى مكانه. وبينما كنت أمسكه من رأسه، سقط رأسه عنه. وحدث أن قال لي والدي، حين رأى أن رأس الماروماث قد وقع عنه: إبراهيم! فقلت: انظر، أنا! فقال لي: هات فأساً قصيراً من البيت! فجئته به. وكان يضرب (يبني) ماروماث آخر من حجر آخر لا رأس له، والرأس الذي كان قد سقط عن الماروماث، وضعه فوقه، وحطّم ما بقي من الماروماث.." وفي أبوكاليبس أبراهام، (تحرير Bonwetsch ، ص 13 وما بعد)، نجد إبراهيم وقد باع أصناماً في سوريّا. ثم يقال بعد ذلك: "ونفر أحد جمالهم (التجّار في سوريّا)، ففزع الحمار وركض ورمى الأصنام عن ظهره؛ فتهشّم ثلاثة منها وبقي اثنان سالمين. وحدث وأن رأى السوريّون أنه كان بحوزتي أصنام، فقالوا لي: لماذا لم تطلعنا، أن لديك أصناماً، بحيث كنّا نشتريها، قبل أن يسمع الحمار صوت الجمال، ولم تكن بالتالي لتضيع.." ثم باع إبراهيم الصنمين الباقيين ورمى تلك المهشّمة في مياه نهر غور، " ومنذ ذلك الوقت لم يكن لها وجود".

هذه الحكاية في الأبوكاليبس تُظهر، كما سنرى، الملامح الأساسيّة للرواية الهاغاديّة، التي تحاكي الوصف القرآني المختصر لها.

يقول سفر التكوين راباه 19:38 : " قال.. ح. حيا: كان تيراح يعبد الأوثان ويبيعها أيضاً. وذات مرّة ذهب والده وسمح ل إبراهيم بأن يأخذ مكانه كبائع. فجاء إليه رجل وكان يرغب بشراء أحد الأصنام. فقال له إبراهيم: كم عمرك؟ فأجاب هذا: خمسون سنة أو ستون. فقال الرجل: الويل لرجل عمره ستون عاماً، والذي سينحني لصنم، عمره يوم واحد ليس إلاّ. فخجل المشتري من نفسه ومضى. وذات مرّة جاءت امرأة تحمل في يدها طاسة فيها دقيق ناعم. فقالت لإبراهيم: إذن أنت الذي تقدّم القرابين للأصنام فنهض إبراهيم، تناول بيده عصا، حطّم الأصنام كلّها، ووضع العصا بيد كبيرهم. وحالما جاء والده، سأله: من فعل بهم (الأصنام) ذلك؟ فقال إبراهيم: لماذا علي أن أخفي الأمر عنك؟ لقد جاءت إلي امرأة تحمل في يدها طاسة فيها دقيق ناعم وقالت لي: أأنت الذي تقدّمها! أأنت الذي تقدّمها قرباناً! فقال أحدهم: أريد أن آكل أنا أولاً؛ وقال الآخر: أنا آكل أوّلاً.

فنهض أكبرهم، تناول عصا وراح يهشمهم. فقال تيراح لابنه: لماذا تهزأ مني؟ وهل يمكنه فعل ذلك؟ فقال له إبراهيم : أسمعت أذاك إذن، ما يقوله فمك؟".

يمكن أن نجد هذه الحكاية بتفاصيل أكثر عند تانا د.ب. إلياهو زوطا25 .C ، وهي الرواية التي جاءت من زمن أحدث من سابقاتها: "عندما أعطى أبو إبراهيم [ابنه] سلّة مليئة بالأصنام لبيعها في السوق، جاء رجل إلى إبراهيم في السوق، وقال له: هل لديك صنم للبيع؟ فقال له إبراهيم: أي نوع من الأصنام تريد؟ عندها قال الرجل لإبراهيم: أنا قوي! أعطني صنماً قويّاً جدّاً مثلي! فتناول إبراهيم صنماً، والذي كان أعلى من كل ما عداه، وقال لذاك الرجل: خذ هذا! فقال ذاك الرجل لإبراهيم: وهل هذا الإله قوي مثلي أيضاً؟ فقال إبراهيم له: غبي!.. لو لم يكن هذا الإله قويّاً جداً، لما انتصبت قامته فوق قامات الآخرين. لكني لن أتحدث معك أكثر، حتى تعطيني النقود. وللحال عدّ النقود لإبراهيم، وأخذ الصنم. لكن ما أن سار في طريق العودة، حتى قال له إبراهيم: كم تبلغ من العمر؟ فأجاب الرجل: سبعون عاماً! فقال له إبراهيم : أأنت الذي تنحني للصنم الذي اشتريت، أم هو الذي ينحني لك؟ فقال الرجل: أنا الذي أنحني له. فقال له إبراهيم: على ما يبدو، إذن، أنك أنت إلهه أكثر ما هو الهك؛ كيف باستطاعتك، وأنت مولود قبل سبعين سنة، أن تنحني أمام هذا الصنم، الذي بني الآن بالمطرقة؟ فرمى الرجل بالصنم في سلّة إبراهيم، واستردّ نقوده ومضى. بعدها جاءت أرملة فقيرة، وقالت لابراهيم: أنا أرملة فقيرة، فأعطني إلهاً فقيراً جداً مثلي! وللحال أمسك إبراهيم بصنم، والذي كان أقصر من كل ما عداه، وقال للمرأة: خذي هذا الإله. فقالت المرأة لإبراهيم: هذا الإله ثقيل علي للغاية. ولم تستطع حمله. فقال لها إبراهيم: ياغبيّة، لو لم يكن هذا الوثن أصغر من كل ما عداه، لما وقف أدنى من الجميع. لكنّه لن يتحرك من مكانه، حتى تعطيني النقود. وللحال أعطته المرأة النقود، وأخذت الوثن. وحالما آبت في طريق العودة، قال لها إبراهيم: كم هو عمرك؟ فقالت المرأة: عمري سنوات عديدة. فقال لها إبراهيم: أتمنى لو تزهق روح المرأة! كيف باستطاعتك أن تركعي أمام هذا الصنم، وأنت خلقت قبل سنوات عديدة، ووالدي صنعه البارحة بالمطرقة؟ وللحال أعادت الصنم إلى السلّة، وأخذت من إبراهيم نقودها ومضت في حال سبيلها. فأخذ إبراهيم كل الأصنام، وجاء بها إلى والده، تيراح. فقال أولاد تيراح الآخرون: إبراهيم هذا، لا يلائم بيع الأوثان، ونحن نريد أن نصنع منه كاهناً. فسأل إبراهيم: وماذا سيفعل كاهن كهذا؟ فقال له أحدهم: إنّ عليه تنظيف غرفة الأصنام، سكب الماء أمامها، إطعامها وسقيها.. وللحال وضع إبراهيم الطعام والشراب أمامها، وقال لها: كلوا واشربوا حتى يعرف واحدنا أنكم من صنع البشريّة، وها أنا أقدّم لكم الطعام والشراب. لكن ما من أحد تناول حتى الكميّة الأدنى من الطعام والشراب. ثم استشهد إبراهيم بالمزمور 5:115 وما بعد: لها أفواه ولا تتكلّم، لها عيون ولا تبصر. لها آذان ولا تسمع، لها أنوف ولا تشم. لها أيد ولا تلمس، لها أرجل ولا تمشي. وماذا فعل إبراهيم ؟ تناول عصا، فحطّم كل الأصنام ورماها في فرن وجلس. وبحسب معاسه أبراهام (نشر يلنيك، بيت ها مدراش، I: 25 وما بعد) الذي هو من زمن أحدث من النصوص السابقة، نرى نمرود وهو يترك إبراهيم قرب الأصنام. وبعد ذلك يقال: فرأى إبراهيم أن الملك ذهب إلى قاعة الاجتماعات، فمد يده وتناول فأساً، وحالما رأى صنم الملك أمامه، قال: الإله أزلي، الإله أزلي (1 مل 39:18). وراح يرميها عن قواعدها ويهشمها، وكان بدأ بالأكبر وانتهى بالأصغر، ومن أحدها كان يأخذ الرجلين، ومن الآخر الرأس، الذي كان يسحق منه العينين ومن الآخر القدمين. وهكذا تركها هناك محطّمة كلّها".

جاء بمرود ليجد أصنامه كلّها محطّمة، والفأس بيد الأكبر فيها.

إذن، من النماذج السابقة، ومثلها كثير للغاية لكن القطيعة المعرفيّة التي يفرضها المشايخ تمنع المسلمين عن أي تواصل ذي جدوى مع الثقافة الفعليّة، يتبيّن لنا، بما لا يدع مجالاً للشك، أن نصوصاً كثيرة من القرآن هي الترجمة الحرفيّة . وأحياناً نقل دقيق لتشابه العبريّة والعربيّة . لنصوص مقابلة من الهاغاده، لا التوراة، حتى لا يتنطّح المشايخ للقول: بما أن النصيّن من الله، لا عجل أن يتطابقا. والهاغاداه، باعتراف علماء اليهود أنفسهم، ليست من الله: إلا إذا كان كهنة حزب الله العربي الإشتراكي، بنفاقهم المألوف، سيزاودون على اليهود بالقول: كل ما جاء به الحاخامون، من سفر التكوين إلى آخر ما ابتدعته مخيّلة رام بام، من الله . كي يغطّوا الفضائح الدينيّة أمام أتباعهم.

بعد المواقف المكابرة مما يسمّى مفكّري المسلمين من آرائنا السابقة: ومثلها كثير . هل يمكن الحديث عن عقل في الإسلام؟

ملاحظة: أعرف أن ثلاثة أرباع المشايخ لا يمتلكون الأهلية الفكريّة لفهم ما أقول . وما قلته؛ وأعرف أن الغالبيّة الساحقة من المسلمين لا يريدون فهم ما أقول: لكن هذا لا يعفي من قول الحقيقة، في زمن الدجل والخوف والمسايرة.

نبيل فياض، 30 يناير 2004

تعلّم الإسلام في خمسة أيام ـ اليوم الرابع

الدرس الرابع: احتقار النساء!

من المعروف للباحثين أصحاب العلاقة أن الإسلام، كديانة رعوية تفرّعت عن ديانة رعويّة أخرى هي اليهوديّة، لا يمكن النظر إليه إلاّ كمنظومة بطريركية صرفة. ومن المعروف أيضاً، سوسيولوجيّاً، أن التيارات الرعويّة المنشأ، بسبب الدور الأبرز للرجل فيها من ناحية، والعبء الذي تشكّله المرأة على مجتمعها القبلي من ناحية أخرى، يحمل في دواخله كراهية لا واعية للعنصر الأنثوي. في الجماعات الرعوية، حيث التنقّل هو السمة الغالبة، تشكّل المرأة الضعيفة عموماً، الأم غالباً، الحامل في أوقات كثيرة، دوراً إعاقيّاً لتحرّك جماعتها؛ بالمقابل، ففي هذه البيئة حيث السبي والغزو وأنواع اللصوصيّة الأخرى من أركان الحياة، يكون عبء وجود النساء كبيراً للغاية، فهن لا يستطعن الغزو والإتيان بالمغانم للقبيلة عموماً، لكنهن بالمقابل عرضة للسبي وتلطيخ جبين قبيلتهن بالعار.

لقد اجتازت اليهوديّة، بعد انتقالها المفترض من بيئتها الرعوية البدئيّة إلى بيئة زراعيّة متحضّرة، نوعاً من التحوّل في غير صالح المؤسسة البطريركيّة. ويمكن الاستدلال على آثار المجتمع الزراعي في اليهوديّة من بعض أعياد العبرانيين ذات الطابع غير الرعوي: مقابل تلك الرعويّة القديمة. فعلى سبيل المثال، أعتقد أن الشبعوت والصوكوت عيدان زراعيّان بامتياز؛ في حين أن الروش ها شناه ويوم كيبور عيدان رعويان. مع ملاحظة أن التقويم اليهودي "القمري ـ الرعوي"، يمكن أن يوصلنا إلى تحديد تقريبي لزمن التحوّل اليهودي نحو الزراعيّة، إذا ما حدّدنا تاريخ دمجه مع التقويم "الشمسي ـ الزراعي". مع ذلك، ولأن التراث اليهودي، في جزء كبير منه، حمل البصمة الرعويّة، خاصّة في الأقسام الهالاخية من الرسائل ذات العلاقة بالنساء من التلمود البابلي: *سوتاه*؛ *نذاه*؛ و *ناشيم*. ولأن هذه النصوص الهالاخيّة ذات صبغة مقدّسة تتجاوز الزمان والمكان، فقد كان على المرأة اليهوديّة الانتظار إلى القرن التاسع عشر، حيث تبلورت حركات القوميّة اليهوديّة العلمانيّة وظهر تيار اليهوديّة الإصلاحيّة الهام، كي تكسر نير الهالاخا وتعود كائناً كامل الحقوق والبشريّة.

للأسف الشديد، فإن تيارات القوميّة العربيّة لم تكن أكثر من أصوليّة محدثة ترتدي قناعاً قوميّاً؛ كذلك فإن ما يمكن تسميته "إصلاح إسلامي" بالمعنى الفعلي مسألة لم تر النور، برأينا، في التاريخ الإسلامي الحديث قط. الإصلاح، بالمعنى الجذري للكلمة، أمر لا وجود له بين المسلمين منذ زمن طويل. وحتى عندما أراد المسلمون

شكل إصلاح زمن المأمون مع المعتزلة أو عبر التيار الإسماعيلي، فقد تآمر الحاكم . أبرزهم المتوكل على الله العباسي . مع الرعاع الذين فشلوا في استيعاب ما يطرحه المعتزلة أو الاسماعيليون وعادت المسألة برمّتها إلى نقطة الصفر.

إن الوضع السيء للغاية الذي تعيشه المرأة المسلمة الآن مردّه البنى المعرفيّة التي أشيد على أساسها الإسلام، والتي أرادت طبقة الإكليروس الإسلامي إعطائها الصبغة الأبديّة لاستخدامها في صالح تلك الطبقة أبديّاً، مع أن الواقع التاريخي المدوّن، وإن كنّا لا نثق به لا من قريب ولا من بعيد، يقول إن كبار رجال الدعوة، مثل عمر بن الخطّاب المؤسس الفعلي للدولة الإسلاميّة، لم يتعاملوا مع بعض النصوص قطعيّة الدلالة على أنها أبدية الصلاحية؛ ويمكن لمن شاء مراجعة الأدلة الحاسمة على ذلك في كتاب *النص والاجتهاد*. لقد حاول بعض المتفلسفين من الإسلاميين إيجاد مبررات لعمر وعائشة وخالد بن الوليد وعثمان بن عفّان وغيرهم بأنهم إمّا تأوّلوا فأخطأوا أو أنهم شعروا بأن الزمن تجاوز تلك النصوص. فإذا كان عمر قد أحس بعد أقل من عشر سنوات على وفاة محمد أن الزمن تجاوز بعضاً من نصوصه المقدّسة . مثلاً: سهم المؤلّفة قلوبهم وزواج المتعة وطلاق الثلاث بفم واحد وعدم قطع اليد في حالة السرقة إطلاقاً وعدم السماح ببيع أمهات الأولاد . أو أن خالد بن الوليد تأوّل فأخطأ في قتله مالك بن نويرة أو أن عائشة تأوّلت فأخطأت في خروجها من بيتها وقيادتها جيش لمحاربة مبشّر بالجنّة آخر هو علي بن أبي طالب، فلماذا لا يفهم هؤلاء المتفلسفون، وأخصّ هنا بالذكر معروف الدواليبي، بأن محمّداً مات على الأرجح قبل أكثر من ألف وأربعمئة سنة، وأن مجتمعاتنا الزراعيّة الجذور تختلف جذريّاً عن مجتمعه الذي يبدو أنه ما يزال رعويّاً إلى الآن؛ بمعنى أن التغيّرات "الزمانيّة . المكانيّة" بيننا وبين محمد شبه مطلقة، ومع ذلك لا يزالون يدافعون عن مطلقيّة أحكامه؟

<u>نماذج عن أحاديث تحقير النساء:</u>

1 . المرأة تأتي على صورة شيطان.. فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها. (حديث)

2 . للمرأة عشر عورات: فإذا تزوّجت ستر الزواج عورة وإذا ماتت ستر القبر التسع الباقيات. (حديث)

3 . المرأة عورة فإن خرجت استشرفها الشيطان. (حديث)

4 . النساء حبائل الشيطان. (حديث)

5 . النساء سفهاء[!!!] إلا التي أطاعت زوجها. (حديث)

6 . لا يسأل الرجل فيما ضرب أهله! . (حديث)

7 . علّقوا السوط حتى يراه أهل البيت فإنه أدب لهم. (حديث)

8 . استعينوا على النساء بالعري، فإن المرأة إذا كثرت ثيابها وأحسنت زينتها أحبت الخروج. (حديث)

9 . لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد،[لماذا] ثم لعلّه يعانقها ويجامعها [!!!] في آخر اليوم. (حديث)

10 . ثلاثة لا تتجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط.. (حديث)

11 . لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها ولو سألها نفسها [!!!] وهي على قتب لم تمنعه! . (حديث)

12 . والذي نفسي بيده: لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنجس بالقيح والصديد . ثم استقبلته تلحسه ما أدت حقه. (حديث)

13 . أيما امرأة سألت زوجها طلاقا في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة! . (حديث)

14 . لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها , وهي لا تستغني عنه! .- حديث.

15 . إذا دعا الرجل امرأته لفراشه , فأبت أن تجيء فبات غضبانا عليها , لعنتها الملائكة [!!!] حتى تصبح (حديث)

16 . أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة! (حديث)

17 . مثل المرأة الصالحة بين النساء مثل الغراب الأعصم بين مئة غراب. (حديث)

18 . يا معشر النساء، تصدَّقن فإني أُريتكم أكثر أهل النار، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى. قال. فذلك من نقصان دينها. (حديث) نلاحظ هنا أن الذي قرّر أن شهادة المرأة، مطلق مرأة، تعادل نصف شهادة رجل، مطلق رجل، هو محمّد؛ والذي يستغل هذه الشهادة لتقرير أن المرأة بنصف عقل هو محمد أيضاً: أي، هو الخصم والحكم!

19 . النساء ناقصات عقل ودين. (حديث)

20 . ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء. (حديث)

21 . إذا كان الشؤم في شيء؛ ففي الفرس والمرأة والمسكن. (حديث)

22 . يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب. (حديث)

23 . إذا تزوّج أحدكم أو اشترى خادماً.. (حديث)

24 . النكاح رق. (حديث)

25 . استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق. (حديث)

26 . لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة . (حديث)

27 . سوداء ولود خير من حسناء لا تلد . (حديث)

28 . خير نسائكم الولود الودود . (حديث)

29 . إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها وتيسير رحمها . (حديث)

30 . لحصير في البيت خير من امرأة لا تلد . (حديث)

31 . المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها .- حديث.

32 . أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل! فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها [!!!] فإن اشتجروا فالسلطان وليّ من لا وليّ له! (حديث)

33 . يحتمل أن نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ضربهن قبل نزول الآية، ثم لما ذئر النساء أذن في ضربهن ونزل القرآن موافقا له، [!!!] ثم لما بالغوا في الضرب أخبر صلى الله عليه وسلم أن الضرب وإن كان مباحا على شكاسة أخلاقهن، فالتحمل والصبر على سوء أخلاقهن وترك الضرب أفضل وأجمل (حديث) لكنه لم يمنعه.

34 . إيّاك ومشاورة النساء، فإنّ رأيهنّ إلى أفن وعزمهن إلى وَهن واكفف عليهن بأبصارهن بحجابك إيّاهنّ، فإن شدة الحجاب أبقى عليهن.... علي بن أبي طالب.

35 . لا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببنَ أمراءكم، فإنهنّ ضعاف القوى والأنفس والعقول.. (علي بن أبي طالب)

36 . معاشر الناس! إن النساء نواقص الإيمان ونواقص الحظوظ ونواقص العقول، فأمّا نقصان إيمانهنّ فقعودهنّ عن الصلاة والصيام في أيام حيضهنّ وأمّا نقصان عقولهن فشهادة امرأتين كشهادة رجل الواحد، وأما نقصان حظوظهنّ فمواريثهنّ على الأنصاف من مواريث الرجال. (علي بن أبي طالب.)

37 . اتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهنّ على حذر ولا تطيعوهنّ في المعروف [!!!] حتى لا يطمعن في المنكر. (علي بن أبي طالب)

38 يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال. علي بن أبي طالب.

39 . المرأة عقرب حلوى اللَّسْبة. (علي بن أبي طالب)

40 . المرأة ريحانة وليست بقهرمانة. (علي بن أبي طالب)

41 . زجر عمر بن الخطّاب امرأته لمّا راجعته؛ فقال: ما أنت إلّا لعبة في جانب البيت، وإن كانت لنا إليك حاجة؛ وإلاّ فلا.

42 . خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة. (عمر بن الخطّاب)

43 . ثلاثة إن أكرمتهم أهانوك وإن أهنتهم أكرموك: المرأة والخادم والنبطي. (الشافعي)

44 . ليس للمرأة خروج إلا مضطرة، وليس لها نصيب إلاّ الحواشي. (أئمة)

45 . واجباتها أن تكون قاعدة في بيتها لازمة مغزلها لا يكثر صعودها واطلاعها. قليلة الكلام لجيرانها. لا تدخل عليهم إلاّ في حال يوجب الدخول؛ تحفظ بعلها في غيبته وتطلب مسرّته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها ومالها، فإن خرجت فمحتجبة بهيئة رثّة، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة أن يسمع صوتها أو يعرفها بشخصها؛ لا تتعرّف على صديق بعلها في حاجاتها، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه... إن استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضراً، لم تستفهم، ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها؛ وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدّم حقّه على حقّ نفسها وحقّ سائر أقاربها؛ متنظفة في نفسها، مستعدّة في كلّ الأحوال للتمتع بها إن شاء. (الغزالي)

46 . واجبات الزوج بحسب الغزالي: الصبر عليهن واحتمال الأذى منهن.. فقد كان رسول الله (ص) يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق. (الغزالي)

<u>المرأة الحرّة والمرأة المملوكة:</u>

يخطيء كثيراً من يصدّق بروتوكولات حكماء الإسلام بأن الأحكام المتعلّقة بالنساء مطلقة، بمعنى أنها قابلة للتطبيق على كافة النساء المسلمات، بغضّ النظر عن وضعهن الاجتماعي أو الطبقي. والحقيقة أن كثيراً من تلك الأحكام التي يقيم الدنيا لأجلها "علماء" الإسلام هذه الأيام، لا تمتلك مطلقيّة هائمة، بحيث تجعلها قابلة للاستخدام في أي زمان ومكان: وعلى رأس ذلك تأتي مسألة الحجاب، التي لو كان عند بعض العلمانيين والليبراليين عقل، لكشفوا عن حقائقه المخزية واعتباره دليلاً لا يدحض على موقف الإسلام اللاأخلاقي من مسألة الرق. ومن نصّ إسلامي نقتبس الكلمات التالية: "وفرّق الشافعي وأبو حنيفة والجمهور بين عورة الحرة والأمة، فجعلوا عورة الأمة ما بين السرة والركبة كالرجل؛ وقال مالك: الأمة عورتها كالحرة حاشا شعرها فليس بعورة، وكأنه رأى العمل في الحجاز على كشف الإماء لرءوسهن".

إذن، بغضّ النظر عما إذا كانت المرأة مسلمة أم لا، فإن الحجاب مرتبط بواقعها الطبقي: فهي إن كانت حرّة حجّبت بالكامل، وإن كانت أمة عرّيت بالكامل تقريباً. والظاهرتان، كما أشرنا باستمرار، ليستا أكثر من تشييء ذكوري للأنثى تحت رايات قداسة كاذبة.

من ناحية أخرى، لأن العبد لا يعتبر إنساناً كامل الأهليّة، فإن زنا العبدة لا ينظر إليه كزنا الحرّة؛ فمقابل الحديث المحمدّي الذي يطالب برجم الحرّة المتزوّجة الزانية، ثمّة حديث غريب يتعامل مع الزنا بأريحيّة ملفتة حين تكون الزانية عبدة. يقول هذا النص القدسي: إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها ولا يثرب ثم إن زنت فليجلدها ولا يثرب ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر!

<u>الوضع الفعلي للمرأة في الإسلام:</u>

إذا وضعنا جانباً الأحاديث النفاقيّة التي يريد المثقفون الإسلاميّون ترويجها حول موقف الإسلام من المرأة والتي لا تخرج عن كونها محاولة فاشلة لتسويق الإسلام في بيئات تختلف تماماً عن غيتو طيبة البدوي القديم؛ فالإسلام واحد من أكثر الديانات احتقاراً وتشييئاً للنساء في العالم الآن. ومن الأحاديث السابقة، ومثلها أكثر من أن يحصى، نتلمّس السمات الأساسية لموقف الإسلام من مسألة الأنوثة عموماً:

المرأة كائن لمتعة الرجل: فهو من جهة يستمتع جنسيّاً بالإماء اللاتي لا تحديد للعدد المسموح للرجل امتلاكه منهن؛ ومن جهة أخرى يستمتع بامتلاكه المطلق للحرّات اللواتي يفتقدن أدنى متطلّبات الكيان البشري المستقل.

ربط محمد طاعة المرأة زوجها بطاعتها لإله المسلمين، الذي يبدو في بعض المأثور الإسلامي وكأنه صورة أمثوليّة للذكر الأبدي.

تغطيّة التعامل اللاأخلاقي مع النساء بشكل لشرعيّة دينيّة تبيح للذكر المسلم مقاربة الأنوثة بأسوأ من مقاربته الحيوان، الذي نتفاجأ قي المأثور الإسلامي بنوع من التحريض على عدم ضربه مثلاً.

المرأة، في نهاية الأمر، كيان مرتبط وجوديّاً بأدائه لوظيفته "العضويّة ـ البيولوجيّة" فقط؛ فالحصيرة أفضل من المرأة التي لا تلد.

اعتبار الزواج [النكاح] أحد أشكال الملكيّة أو الرق، الذي لا مجال فيه للمملوك الاعتراض على المالك في شيء.

بل يمكن القول إن الزواج في الإسلام شكل دعارة شرعيّة؛ خاصّة إذا ما لاحظنا أن المهر، مثلاً، يعطى باستمرار من الرجل إلى المرأة بما استحل من فرجها.

وككل أيديولوجيا موضوعيّة [ليس بمعنى الواقعيّة أو الموثوقيّة، بل بمعنى تقديم الموضوع على الذات]؛ فالإسلام أحد أكثر التيارات تعميمية على الإطلاق. ـ خاصّة في المسألة الأنثويّة: بمعنى أن كلّ امرأة، حتى وإن كانت إليزابيث ثاتشر أو مادلين أولبرايت أو كوندوليسا رايس، هي بنصف عقل الذكر، وإن كان ربع عاقل من نمط مقتدى الصدر وبقيّة جوقة آل البيت العراقيّة.

إذن: إن وضع النساء في الإسلام، كما العبيد، واحد من أسوأ الأوضاع بالمقاييس الحضاريّة العالميّة هذه الأيام . . فما هر سرّ تمسّك طبقة الإكليروس الإسلامي، بالأيدي والأسنان، بهذه الحالة المشينة؟ إذا طرحنا جانباً النفاق المشايخي الأشهر من أن يعرّف، فالإسلام منظومة ثيوقراطيّة قبليّة مركزيّة للغاية. بل إن هذه المركزية تصل إلى حدّ الإطاحة بالفرد على مذبح الجماعة – كالماركسيّة بمعنى ما. وجميعنا يعرف، أن ما سمّي بالخلافة الإسلاميّة لم يخرج عن قريش حتى للأنصار الذين لولاهم لدفن الإسلام في مهده. [راجع هنا

كتابي: *يوم انحدر الجمل من السقيفة*]! إذن: الإسلام، كمنظومة استاتيكيّة يتحسّس للغاية من أية حركيّة اجتماعيّة يمكن أن تؤدّي إلى أي شكل معارضة، مهما بدا بسيطاً. ولأن الإسلام، كما أشرنا باستمرار، لا يفهم معنى المعارضة، فهو لم ينظر إليها قط إلاّ من ثقب الفتن والشقاق؛ لهذا كثرت في الإسلام الحروب والصراعات الدمويّة [راجع أيضاً كتابنا: *أم المؤمنين تأكل أولادها*]!

إن السيطرة على الأنوثة باستخدام سلاح ماورائي صارم، يعني السيطرة على المجتمع كلّه: فمن ناحية، الأم المستلبة دينيّاً يمكن أن تكفل للجماعة أولاداً مستلبين دينيّاً أيضاً؛ وتؤمّن من ناحية أخرى أدنى ديناميكيّة اجتماعيّة عبر كبح عواطف النساء بسلاسل الألوهة. من هنا يمكن أن نفهم سرّ تكالب المراجع الدينيّة، سنّة وشيعة، على مسألة الحجاب، التي يعرفون كلّهم حقيقتها الدينيّة الفقهيّة: فأي تنازل للنساء يمكن أن يقود إلى تنازلات أخرى، وبالتالي خلق حركيّة في مجتمع لم يعتد عليها، الأمر الذي قد يوصل إمّا إلى نسف الأسس التي أقامت عليها تلك القوى دعاويها الباطلة، أو إعادة مقاربتها من منطلق عصري يطيح كليّاً بالفهم التقليدي للدين.

شخصيّاً، لا أجد فرقاً كبيراً بين مسوّقي أفلام البورنو ومصنعيها، وطبقة المشايخ والشيخات، في قضيّة الأنوثة: الطرفان ينظران إلى المرأة باعتبارها جسداً بلا عقل. الفرق هو أن طرفاً يريد كشف هذا الجسد والآخر تغطيته. لكن أياً من الطرفين لم يفكّر قط بكشف درر العقل الأنثوي. . مع ذلك، فجماعة البورنو تتميّز على المشايخ بأن ما تقوم به لا يحظى بتغطية ماورائية تسلب المرأة إمكانيّة التفكير بصحة ما تقوم به؛ في حين أن الاستلاب الماورائي لعقل الأنثى المسلمة الذي يمارسه الشيوخ والشيخات يقطع الطريق على المرأة كي تراجع صحة ما يقال مهما بدا أكذوبيّاً أو بعيداً عن الواقع.

<u>منظّرات التحقير الذاتي:</u>

إنّ أغرب ما في الإسلام، كمنظومة معقّدة للغاية، هو هذه القوة الاستلابيّة التي تجعل المرأة تصل فيها إلى درجة الدفاع عن تحقيرها الذاتي. وأعتقد أن دور علماء النفس الموضوعيين هنا يجب أن يكون حاسماً في إيصالنا إلى مقاربة غير نفاقيّة لفهم الآليّة النفسيّة لهذا الخلل البنيوي غير العادي. اليهود الأرثوذكس، طبعاً، يعانون من أوضاع مرضيّة من هذا النمط: لكن هؤلاء، كمجموعات البورنو، لا يشكّلون جائحة عالميّة الامتداد.

نبيل فيّاض؛ الناصريّة، 7 فبراير 2004

تعلّم الإسلام في خمسة أيام ـ اليوم الخامس

الدرس الخامس: اعتقال الصيرورة!

www.annaqed.com

نبيل فياض، 13 فبراير 2004

لا مجال للجدل بأن أفعالاً محدّدة ليس لها مكان في المنظومة المعرفيّة الإسلاميّة الأرثوذكسيّة: أبرزها ـ صار، أصبح، أضحى، تغيّر، تحوّل.. إلخ. بالمقابل، ثمّة أفعال أخرى لها في المنظومة ذاتها مكانة لا تحتلها في أية منظومة غيرها، باستثناء اليهودية الأرثوذكسيّة ربما: أبرزها ـ سرمد، أبّد، دام، استمرّ.. إلخ. فالإسلام، لأنه يتناول الحياة بأدق تفاصيلها "من منظور الأبديّة"، لا يستطيع فهم التحوّل بفعل الظروف الزمانيّة المكانيّة. ولأن لا شيء في الحياة البشريّة يمكن أن يدوم أو يتكرّر بالدقّة ذاتها في كلّ زمان ومكان، ولأن الإنسان كما يقول الشاعر الكبير، لوبيه دي فيغا، "أنا أكون أنا وظروفي"، فالاختلاف جوهر الطبيعة البشريّة: لأن ما من بيئة زمانيّة أو مكانيّة تشابه الأخرى، مهما تقارب التاريخ والجغرافيا. من هنا يمكن القول، إن أسوأ ما جاء به الإسلام من مفاهيم هو التعميم: اعتبار الناس سواسية كأسنان المشط.

الفكرة في الإسلام ـ التي تخدم أصحابها طبعاً ـ هي الأساس: والإنسان تحصيل حاصل. في كلّ الأيديولوجيّات التي تضع الإنسان على رأس أولوياتها نجد أن "باترون" الفكرة يقصّ بحسب البشري: في الإسلام الإنسان يقصّ وفق "باترون" الفكرة. المنطق الأخلاقي يقول، إنه من المعيب قصّ يديّ الكائن البشري أو ساقيه أو حتى رقبته إذا كانت غير متناسبة مع باترون الفكرة؛ لكن الإسلام استأصل شعوباً وثقافات وحضارات لأنها، في نظره، كانت مناقضة لمنظوره للكون والبشريّة. ألم يقض الإسلام جذريّاً على الحضارة الزرادشتيّة العظيمة في إيران؟ ألم يستأصل الإسلام القوميّة الآراميّة ـ السريانيّة الراسخة من وطنها الأصلي: سوريّا؟

ألم ينه ماضي مصر القبطي الهلنستي الأعرق، باستثناء جزر صغيرة لا وزن لها، بضربة واحدة من قبضته القاتلة؟ لم يفعل الإسلام ما فعله بقدراته الفكريّة أو الثقافية (هل ننسى حرق المكتبات الذي بدأ مع عمرو بن العاص في الاسكندريّة ولم ينته مع صلاح الدين الأيوبي في مكتبة الفاطميين القاهرية؟)، لأنه باستثناء حفنة متشظيّة من الميثولوجيات الهاغاديّة الأصل وبعض هالاخوت مملّة، لا ثقافة في الإسلام ولا من يحزنون؟ إنّ ما حدث في مكّة حين اقتحمها جيش المسلمين، وقتل بعض المكيّين حتى وإن تعلّقوا بأستار الكعبة [أغلب من قتل كان سببه إيذاء غرور محمد عبر شكل انتقاد له لم يعجبه]، هو الدليل الأبرز على عنف المسلمين في ذبح البشر على عتبة الفكرة. لماذا يبدو المسلمون هم الأعنف،على الدوام، في ترويج ما يعتقدون أنه أفكار هامّة؟ أبسط تعليل هو الضعف! فهشاشة الفكرة الإسلاميّة عموماً، تجبر معتنقها على فرضها بالسيف، لأنها لا تمتلك قوة الفرض الذاتي. أي عاقل في هذا العالم يمكنه تصديق قصص الطوفان والخليقة وآدم وحواء وقابيل وهابيل والإسراء والمعراج، خاصّة بعد شيوع علم الدين المقارن ومعرفة الأصول اليهودية لما اعتقد أنه تراث إلهي أصيل؟! من يستطيع الآن قبض مسألة الخلافة الإسلاميّة بعد انتشار التعليم واستذكار الناس كتب التراث الإسلامي التي لا تحتوي غير الإرهاب والمؤامرات والعهر المقدّس وانتهاك أبسط حقوق الإنسان؟ من باستطاعته تصديق الأصل الإلهي للشرع الإسلامي بعد ما كتبه شاخت وكرونه وغيرهما؟ إنّ الضعف الذي يعيشه المسلمون حاليّاً هو الحظ الأفضل للبشريّة منذ خمسة عشر قرناً. فلو كان المسلمون أقوياء، كما كانوا زمن عمر بن الخطّاب مثلاً، لفرضوا أفكارهم "ذات المنظور الأبدي" على سائر البشر، بغضّ النظر عن الفوارق الثقافيّة وغير الثقافيّة بين الشعوب! تخيّلوا مثلاً نساء الدانمارك بالبرقع ورجال موسكو بالجلباب الوهابي القصير؟ تخيلّوا مثلاً تطبيق حدّ الزنا في مانيلا أو بانكوك أو كمبالا؟ سنضطر حتماً لاقتلاع جبال الهيمالايا من مكانها! تخيلوا مثلاً تطبيق الشريعة الإسلامية السمحاء في كوريا أو اليابان وسوق النساء كالخنازير الصغيرة خارج سوق العمل إلى مواقعهن الطبيعيّة كحريم! تخيّلوا مثلاً تطبيق الشريعة الإسلاميّة في الهند! وفي الإسلام لا وجود لأي دين خارج إطار الثلاثي المرح المعروف! يعني سيساق ملايين الهندوس والسيخ والبوذيين من الوثنيين إلى المسلخ إلا إذا اعترفوا بالإسلام ديانة لهم ولأبنائهم من بعدهم!! تخيّلوا مثلاً أن يغزوا المسلمون الصين ويفرضوا الشريعة الإسلامية في وطن المليار نسمة: باستثناء أقليّة مسلمة صغيرة، سوف يفرم المليار صيني إذا لم يتخلّوا عن الشيوعيّة الملحدة . والعياذ بالله . أو الكونفوشيوسيّة الوثنيّة أو البوذية الشركيّة أو الطاويّة الكافرة! فكلّ هذا الهراء لم يخلقه الله، لأنه لم يعلم نبيّه محمداً به! بل تخيّلوا أن يغزو المسلمون فرنسا! أوّل ما سيقومون به رجم بريجيت باردو وصوفي مارسو وإيزابيل أدجاني وغيرهن من فنانين ومثقفيّن وأدباء علمانيين! وبعدها يخيّرون الشعب الفرنسي بين الإسلام أو الموت: فالله سبحانه لم يورد في كتابه العزيز أي شيء عن العلمانيّة!

تخيّلوا مثلاً إذا احتل المسلمون إيطاليا وقاموا بفرض الهالاخوت المحمدي على وطن الفن والجمال! كم من التماثيل الرائعة، التحف الفنيّة النادرة، اللوحات الكنسيّة التي لا تقدّر بثمن . ستعرف طريقها إلى الدمار! كما فعل بنو طالبان بتماثيل بوذا!

تخيّلوا أن تكون أفغانستان الطالبانيّة بقوة الولايات المتحدة! ماذا يمكن أن يحل بالعالم! بل تخيّلوا أن تكون السعودية الوهابيّة بقوة أمريكا! لقد دخل الأمريكان العراق، ولم نسمع للحظة عن أي نوع من التبشير المسيحي في البلد الذي يقولون إنه محتل؟ فماذا لو كانت السعودية الوهابيّة هي التي غزت الولايات المتحدة؟ وحده الضعف الإسلامي، العسكري . الاقتصادي . المعرفي . السياسي، هو الذي يجبر المسلمين على ليّ

أفكارهم أمام الآخر المخالف! سؤال يطرح نفسه هنا: هل يبيح الإسلام للمسلم العيش مسالماً في دولة كافرة؟ الجواب البسيط للغاية: لا! واجب المسلم تجاه الكافر إمّا أن يؤسلمه أو يقتله! [هل يمكن أن نستذكر حكاية إسلام أبي سفيان؟] إذن ما هو مبرّر المسلمين العيش في فرنسا العلمانيّة خاصة إذا عرفنا أنها تجبرهم بحذاء

القانون على التخلّي عن سلاحهم الاحتجاجي الأخير؟ ما هو مبرّر المسلمين على العيش في بلد وثني ـ هندوسي، خاصّة أن الهندوس يعملون ما بوسعهم لتبشير المسلمين بديانتهم الوثنيّة بحجّة أنها ديانة الهند القوميّة ويحققون في ذلك نجاحات ليست بسيطة؟ بل لماذا يستنكر "علماء" المسلمين أي تطبيق للعلمانيّة في بلاد ذات غالبيّة إسلاميّة ويرحبّون بذلك في بلد هم فيه أقليّة مثل بريطانيا أو الهند؟ وإذا عرفنا أن "المانو سمرتي" يحدّد بدقّة للهندوسي شرائعه الحياتيّة، فماذا لو فاز في الهند حزباً أكثر تطرفاً من بهاراتا جاناتا، الذي توقعنا في كتابنا حوارات عام 1992 أن يفوز بسبب التطرّف الإسلامي الذي لابدّ أن يخلق تطرّفاً موازياً، وأجبر الهنود، تحت رايات الغالبيّة، التي فلقنا بها شيوخ المتعة في إيران والعراق، على الالتزام بالشرع الهندوسي، بغضّ النظر عن الانتماء الديني أو الفكري؟ أليست إيران الخمينيّة، وعراق آل الحكيم، يطبقّان ما يعتقدان أنه شرع إلهي على من آمن بهذا الشرع ومن لم يؤمن به؟

بالمناسبة، نحن نعتقد أن بداية الصدام بين الحضارات، التي يروّج لها الإسلاميّون وغيرهم من متطرّفي الغرب، لابدّ ستكون في الهند: حيث الفقر والتخلّف بين الهندوس، والانغلاق المعرفي الذي هو هويّة إسلاميّة حيث يكون المسلمون. إنّ أبسط ما يمكن قوله حول الحركات المتشدّدة الإرهابيّة الإسلاميّة، كأسباب ثقافيّة، هو أنها ردّة فعل على انهزام الفكرة أمام الإنسان. لقد أُجبر الإسلام، بقوة العقل والمنطق، على اتباع طريق التفافي نفاقي لضمانية استمراره، فضعفه لا يساعده على المواجهة، الآن على الأقل. وكلّ النصوص التي يوردها مشايخه الرسميّون ووعاظ السلاطين لا تستطيع منع الحقيقة الأساسيّة من أن الفكرة تداس لغايات الاستمرارية: فالنص الأصلي المقدّس، غير القابل للتغيير، في المضمون أو الفهم، يرفض أي نوع من هذه المقاربات المشايخيّة الرسميّة السلميّة مع ما هو بنظر الإسلام كفر صريح، حتى وإن كانت في سبيل اللافناء. وهذا الصدام بين الفهمين: فهم وعاظ السلاطين ومشايخ السلطة النفعي الالتفافي النفاقي المقحم على جوهر الإسلام، وفهم الحركات الأصوليّة الإرهابية الحرفي الدقيق الملتزم بأصول الدين الفعليّة، في النهاية، هو صدام بين الفكرة والإنسان: بين الفهم التغييري وإن كان بقوة المنطق والظروف، والفهم السكوني الذي لا يستوعب ما يمليه الزمان والمكان من تبديلات لا مجال لردّها. ما نعتقده هنا هو أنه كلّما ازداد المسلمون انفتاحاً في مسألة لا مطلقيّة مطلق فكرة، كلّما ازدادت وقويت التيارات الأصوليّة المتعصّبة الإرهابيّة في الدول ذات الغالبيّة الإسلاميّة، وانعكس ذلك سلباً على الجو العالمي عموماً. كلّ الكون في أزمة اليوم. ليس

السبب الإرهاب الأصولي أو العقليّة التكفيرية أو قوة الوهابيين النفطيّة: السبب معرفي تربوي؛ وإذا كان المرء في كليّة الشريعة ـ جامعة دمشق عاصمة سوريّا، التي يفترض أنها وطن التعدّدية الأقدم، وأول موطيء قدم في الشرق للفكر الحداثوي، ما يزال يتعلّم رفض الآخر تحت رايات المفاهيم المقدّسة؛ فكيف بالأحرى يمكننا مطالبة السعوديين البدو بأن يغيّروا نمط تفكيرهم الوحداني الذي أعطاهم هوية وحقيقة بين شعوب الأرض؟ وحتى تتغير طرائق التربية والتعليم في الدول ذات الغالبيّة الإسلاميّة، حتى ينتج الإسلام منظومات فكرية تقبل بالآخر حقيقة لا نفاقاً، حتى يصبح الله على قدم المساواة مع بوذا وبراهما وأهورا مازدا: سيظل الإرهاب قائماً والعنف مستشرياً أخيراً، لا أستطيع سوى أن أشكر أستاذي ومعلّمي الأب من رهبنة الآباء البيض، البلجيكي

ألفرد هافنت، الذي علّمني بصبر ودقّة أفضل ما حصلت عليه في عمري حتى الآن: أقصد، لاهوت الصيرورة.
ومجتمع خرج منه وايتهد، سيّد الصيرورة المعاصر، لا يمكن أن نخشى عليه من الانحدار الحضاري.
نبيل فيّاض؛ الناصرية

Copyright 2004 – Nabil Fayyad: www.Annaqed.com / nfayyad@mail.sy